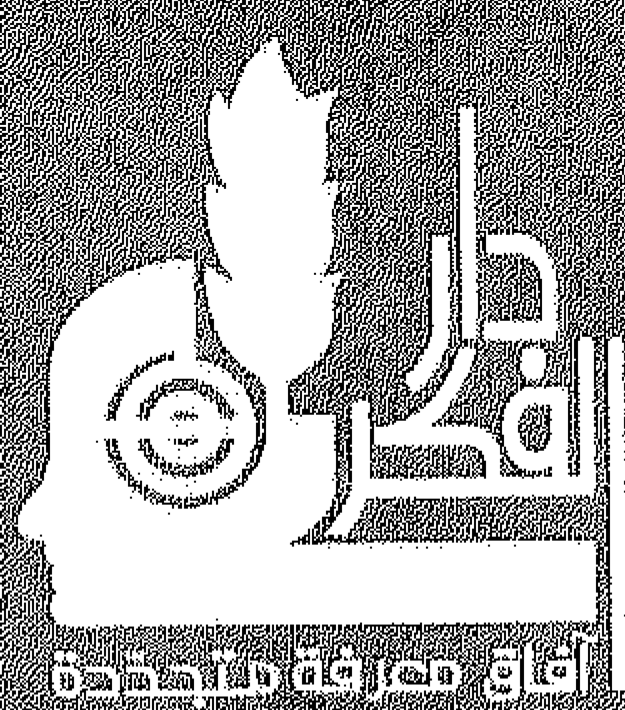
معارك حاسمة في تاريخ الإسلام ١٧

الدكتور شوقي أبو خليل

عين جالوت

بقيادة الملك المظفر قطز



شوقي أبو خليل

- من مواليد ١٩٤١
- دكتوراه في التاريخ الإسلامي
- تقلب في الوظائف التربوية بين التدريس والتوجيه والمناهج
- محاضر في كلية الشريعة بجامعة دمشق
- أستاذ السيرة والحضارة العربية الإسلامية في معهد جمعية الفتح الإسلامي (حالياً)
- مدير النشر في دار الفكر - دمشق (حالياً)

له أكثر من ستين كتاباً، منها:

- سلسلة أطالس إسلامية (أطلس القرآن، أطلس الحديث النبوي، أطلس دول العالم الإسلامي، أطلس السيرة النبوية، أطلس التاريخ العربي الإسلامي)
- غزوات الرسول الأعظم ﷺ ١ - ١٠
- المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام ١-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام

عين جالوت

بقيادة الملك المظفر قطز

عين جالوت:بقيادة الملك المظفر قطز/ شـوقي أبـو خليـل
.-دمشـق: دار الفكـر، ٢٠٠٥ .- ٩٤ص: خرائـط،
صور؛ ٢٠سم.(المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام).
١-٩٥٦,٠٦ خ ل ي ع ٢- العنـــوان
٣- أبو خليل ٤- السلسلة
مكتبة الأسد

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام

عين جالوت

بقيادة الملك المظفر قطز

الدكتور شوقي أبو خليل



آفاق معرفة متجدّدة

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١٨٤٧,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN:1-57547-500-6
الرقم الدولي: ISBN:1-59239-418-3
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان: عين جالوت
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٩٦ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦ هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com



الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٢٦هـ
حزيران (يونيو) ٢٠٠٥م

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مُقدّمة

بسم الله، والحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد..

فيورد السِّير توماس أرنولد في كتابه (الدَّعوة إلى الإسلام)[1] أن المسلمين لا يعرفون من بين ما نزل بهم من الخطوب والويلات خطباً أشدَّ هولاً من غزوات التَّتار، فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثُّلوج من قنن الجبال، واكتسحت في طريقها المراكز الإسلاميَّة، وأتت على ما كان من مدنيَّة وثقافة، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات خالية، وأطلالاً دارسة.

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميَّة، مكتبة النَّهضة المصريَّة، ط٣/ ١٩٧٠م.

وإنَّ المؤرِّخ المسلم ليقشعرُّ بدنه حين يروي هذه الفظائع، حتَّى إنَّ ابن الأثير قد أخذته تلك القشعريرة نفسها حين وصف غارات التَّتار، حيث يقول: «لقد بقيت عدَّة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أُقدِّم إليه رِجْلاً وأُؤخِّر أخرى، فمن الَّذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أُمِّي لم تلدني، و﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ١٩/٢٣]، إلى أن حثَّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقِّف، ثمَّ رأيت أنَّ ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفعل يتضمَّن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عَقِمت الأيَّام واللَّيالي عن مثلها، عمَّت الخلائق، وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل: منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التَّواريخ لم تتضمَّن ما يقابلها، ولا ما يدانيها»[1].

وأمر الإسلام عجيب غريب، فلم يكن بدٌّ أن ينهض من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده التَّالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أُولئك الغزاة المتوحِّشين، ويحملهم على اعتناقه، كما يقول السِّير توماس أرنولد.

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٣٢٩.

لقد كانت ديانة الغزاة الشَّامانيَّة، التي تعترف بإله عظيم قادر، ولكنَّهم عبدوا طائفة من الآلهة الوثنيَّة الشِّريرة، وعبدوا أرواح أجدادهم القدامى، وبعد تنافس بين العقائد لكسب التَّتار، وعلى الرَّغم من المصاعب، أذعن التَّتار للإسلام، حينما انتشر الدُّعاة في طول الإمبراطوريَّة وعرضها، ففي عهد اجتاي (١٢٢٩-١٢٤١م) بدأ انتشار الإسلام في الإمبراطورية، ويُعَدُّ بركة خان (١٢٥٦-١٢٦٧م) أوَّل من أسلم من أُمراء التَّتار، وكان رئيساً للقبيلة الذَّهبيَّة في روسية، حينما التقى بتجَّار دعاة قدموا من بخارى، شرحوا له شرحاً مقنعاً، انتهى به إلى اعتناق الإسلام والإخلاص له، وشجَّع المناظرات الدِّينيَّة التي شغلت مجالسه، ودخل في حلف مع ركن الدِّين الظَّاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر ضد هولاكو، وكان تكودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤م) أوّل إيلخانات التَّتار إسلاماً في فارس، الذي بعث بخبر إسلامه إلى قلاوون سلطان المماليك في مصر[١].

فمن يدرس تاريخ التَّتار ليرتاح حينما يتحوَّل فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع، وما سفكوه من الدِّماء، إلى أسمى عواطف الإنسانيَّة وحبِّ الخير، كما جاء في رسالة تكودار أحمد إلى قلاوون: «عفا الله عمَّا سلف، وتقدَّمنا بإصلاح أُمور أوقاف

(١) الدعوة إلى الإسلام ٢٦٠.

المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع الدِّين والرُّبَط الدَّوارس، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها.. وأمرنا بتعظيم أمر الحجَّاج..»، ثمَّ يلتمس محالفة سلطان مصر: «بحيث تعمر تلك الممالك، وتلك البلاد، وتسكن الفتنة الثَّائرة، وتغمد السُّيوف الباقرة، وتحل العامَّة أرض الهوينى، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذُّل والهوان»[1].

لقد احتواهم الإسلام، فهذَّب نفوسهم وصقلها.

ثمَّ اعتنق غازان (١٢٩٥-١٣٠٤م) - أعظم إيلخانات التَّتار - الإسلام، وجعله دين الدَّولة الرَّسمي في فارس[2].

وأسلمت أسرة جغتاي في إمبراطوريَّة التَّتار حينما اعتنق الإسلام طرماشيرين، حوالي سنة ١٣٢٦م، وحين أسلم تغلق تيمورخان (١٣٤٧- ١٣٦٣م) ملك كاشغر.

واشتهر أوزبك خان - زعيم القبيلة الذَّهبيَّة - في اندفاعه لنشر الإسلام، حتَّى وضع خطَّة لنشره في أرجاء روسية كلِّها.

(١) الرِّسالة مؤرَّخة في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ، آب (أغسطس) سنة ١٢٨٢م، أوردها القلقشندي كاملة في صبح الأعشى ٧/ ٢٣٧.

(٢) الدَّعوة إلى الإسلام ٢٦٣.

ويرجع لتجَّار الفراء المسلمين الفضل في إسلام الرُّوس في حوض نهر الفولغا، في بلاد البلغار شمال بحر قزوين، وتحوَّل القيرغيز في أواسط آسية إلى الإسلام على يد علماء التَّتار أنفسهم.

وانتشر الإسلام بين تتار سيبرية (صابري)، التي انضوت تحت لواء الإسلام في عهد كوتشوم خان، الذي اعتلى عرش سيبرية سنة ١٥٧٠م، واستقدم الدُّعاة من بخارى وقازان.

ولقد كان للأغاني الشَّعبيَّة التي تغنَّاها القرغيز، مكانة بين وسائل الدَّعوة الإسلاميَّة، لأنَّها تضمَّنت حقائق الإسلام الأساسيَّة، مصوغة في أُسلوب قصصي أُسطوري، ممَّا جعل هذه الحقائق تصل إلى قلوب الشَّعب السِّيبيري بسهولة ويسر، حتَّى ذكر توماس آرنولد[١] أنَّ سكان سيبرية أضحوا مسلمين بأسرهم.

وهكذا تحوَّل التَّتار إلى إنسانيَّة الإسلام ورحمته وإخائه وطباعه السَّمحة، بعد جلافة طباع وقسوة ووحشيَّة، سفكت دماء الشُّعوب بغزارة، وهدمت البلاد وحواضرها بقسوة، وسحقت الحضارة الإنسانيَّة التَّراكميَّة دون معرفة قيمتها النَّفيسة الغالية.

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ٢٨٤.

ولابدَّ من الإشارة في هذه المقدّمة، إلى أنَّ هناك اختلافاً بين لفظتي تتار ومغول.

أسلاف جنكيزخان في حروبهم في القرن الثَّالث عشر الميلادي يسمَّون (تتار Tatars) أينما نزلوا، والمغول قبيلة من التَّتار، قسم منهم، فأُطلق اسم بعضهم على الكلّ، واستبدلت كلمَة التَّتار بعد جنكيزخان في بلاد منغولية وأواسط آسية بكلمة المغول (المُغُل Moghul)، ولا يزال لفظ مُغُول مستعملاً إلى اليوم في آسية بين أعقاب المغول الذين لا يزالون محتفظين بلغتهم.

لما سبق ستستخدم كلمة تتار في هذا الجزء (عين جالوت)، وكلمة مُغُول في الجزء التالي (معركة أنقرة) لظهور هذه التَّسمية وغلبتها.

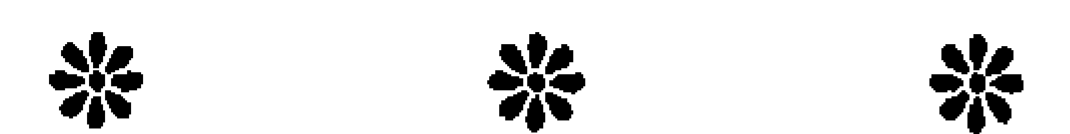
وفي هذا الجزء من سلسلة (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام) نجد الفصول التَّالية: بلاد الشَّام من تحرير بيت المقدس إلى عين جالوت، والتَّتار والخلافة العباسيَّة، وحياة الملك المظفَّر قُطُز (قائد عين جالوت)، وحياة الظَّاهر بيبرس (رئيس أركان الجيش المسلم في عين جالوت)، وأحداث عين جالوت ونتائجها، وسقوط عكا (على يد الأشرف خليل بن قلاوون)، ونهاية الصَّليبيِّين في بلاد الشَّام، وأخيراً خاتمة.

مع إغناء هذا الجزء بالمصورات التي رُسِمَت خصيصاً له، مع الصُّور التَّاريخيَّة المناسبة، والله ولي التَّوفيق، له الحمد أوّلاً وآخراً.

دمشق الشام ١شعبان ١٤٢٥هـ

١٥ أيلول ٢٠٠٤م

الدكتور شوقي أبو خليل
Shawki @ Fikr. Com



من تحرير بيت المقدس
إلى عين جَالُوت

كان لتحرير القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين الأوَّل ١١٨٧م ردٌّ فعل عنيف بالغرب، فكانت الحملة الصَّليبية الثَّالثة بقيادة إمبراطور ألمانية فردريك بربروسا على رأس مئة ألف محارب، وذلك سنة ١١٨٩م.

وأخذ الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس يرسل الرِّسالة تلو الأُخرى إلى صلاح الدِّين ليحيطه علماً بتحرُّكات الحملة الألمانيَّة وأخبارها، فبادر صلاح الدين بإعلان الدَّعوة للجهاد، وطلب المعونة من أُمراء سنجار والموصل واربيل، وأعلم الخليفة النَّاصر لدين الله العبَّاسي علَّه يقدِّم معونة، وأمل بتعاون عسكري مع دولة الموحِّدين في المغرب، فأرسل رسالة إلى أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن الموحِّدي، يعلمه فيها بالخطر الصَّليبي القادم، وأنَّ بوسعه مضايقة السُّفن الأُوربيَّة حاملة الإمدادات للحملة، في موانئها، أو وهي في طريقها إلى بلاد الشَّام.

ولكن حادثاً مفاجئاً لم يكن بالحسبان قلب الموقف رأساً على عقب، فقد غرق فردريك بربروسا فجأة في أثناء عبوره نهراً صغيراً وهو في طريقه من طَرَسُوس صوب أضنة وأنطاكية، فاختل نظام الجيش، وتفرَّق الألمان وتشتَّت جمعهم، وانفلت شملهم، وتمزَّقت وحدتهم، وعاد بعض أمرائهم إلى أوربة، ومن وصل منهم سالماً إلى الشَّام وصفهم ابن واصل بأنَّهم «حملة عصي، وركاب حمير»[1]، بل أُسِرَ معظمهم وبيعوا في الأسواق بثمن بخس.

وذكر ابن الأثير في الكامل (أحداث سنة ٥٨٦هـ) أنَّ فردريك بربروسا نزل إلى الماء «ليغتسل فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط رجليه»، وهكذا زال الخطر من أن تقع بلاد الشَّام بين فكَّي الكمَّاشة، نتيجة هجوم الألمان من الشَّمال، والفرنسيِّين والإنكليز جنوباً من ناحية عكا، «لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان لمَّا خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشَّام، وإلاَّ كان يقال إنَّ الشَّام ومصر كانتا للمسلمين»[2].

حاولت بقايا الحملة الثَّالثة مع دعم بحري من فرنسة وإنكلترة والبابا استرجاع عكا، تمدُّهم قوَّة بحريَّة كبيرة، ولكن دون

(١) مفرِّج الكروب ٢/٢٢٣، وهذا ما ذكره أبو شامة في الرَّوضتين ٢/١٥٦ أيضاً.

(٢) الكامل حوادث سنة ٥٨٥هـ.

جدوى، حتَّى وصل ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترة، وفيليب أُوغسطس ملك فرنسة، فساء موقف حامية عكا الإسلاميَّة أمام ضغط تلك الجموع الكثيفة من الصَّليبيِّين التي شدَّدت الهجوم على المدينة، وأظهرت حاميتها بقيادة قراقوش شجاعة تستدعي الإعجاب، وقام صلاح الدِّين بهجمات ضد الصَّليبيِّين في إنقاذ عكا، فساءت حالة الحامية الإسلاميَّة داخلها، واضطر قادتها قراقوش والمشطوب الكردي إلى الاستسلام، ودخل الصَّليبيون ثانية إلى عكا في تموز (يوليو) ١١٩١م، بعد حصار عامين، ناقضين بنود الصُّلح، فأسروا كلَّ من فيها من المسلمين.

غادر فيليب أوغسطس بلاد الشَّام بحجَّة المرض في ١٣ آب (أغسطس) ١١٩١م، وترك ريتشارد قلب الأسد لتصفية الموقف الصَّعب والمعقَّد، بعد ضم جزيرة قبرص لحكمة فأصبحت مركز تموين دائم لبقايا صليبيي الشَّرق.

تحرَّك ريتشارد جنوباً على ساحل فلسطين مدعوماً بقوَّة بحريَّة كبيرة، فأخذ حيفا وقيسارية، وصمد في أرسوف في ٧ أيلول (سبتمبر) ١١٩١م على الرَّغم من هزيمته في بدء المعركة أمام جيش صلاح الدين، وحقَّق نصراً، ممَّا بعث شعور الثِّقة بالنَّفس في الصَّليبيِّين بعد الهزائم المتوالية عليهم منذ حطِّين، وعبَّر ابن شدَّاد عن الموقف بأسف صلاح الدِّين «كان في قلبه من تلك الواقعة ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى، والنَّاس بين جريح الجسد وجريح القلب».

ووقف أُمراء صلاح الدِّين موقفاً عجيباً حينما قرَّر الدِّفاع عن عسقلان «ادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلاَّ فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا»[١]، فأسرع صلاح الدِّين إلى تخريب عسقلان وإحراقها كي لا يستغل الصليبيُّون مركزها الهام في الزَّحف على بيت المقدس، وفي قطع طريق مصر[٢].

ثمَّ أسرع صلاح الدِّين إلى بيت المقدس للإشراف على الدِّفاع عنها، لعلمه أنَّها غاية الصَّليبيِّين وقصدهم، ولو هاجم ريتشارد بيت المقدس بعد أرسوف مباشرة لاستولى عليها، لضعف وسائل الدِّفاع فيها، ولكنه أصمَّ أُذنيه عن النَّصيحة، وركز جهوده في إعادة بناء يافا، وحينما سار إلى بيت المقدس في نهاية عام ١١٩١م وجد النَّطرون والرَّملة واللُّد خراباً، ولما اقترب من بيت المقدس وجد صلاح الدِّين قد أعدَّ عدَّته للدِّفاع عنها، وأحكم تحصينها، فاضطر ريتشارد إلى الانسحاب، لتبدأ مفاوضات من أجل الصُّلح، وقال: «إنَّ المسلمين والإفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلِّيَّة، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطَّائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقَّه.. ونصطلح ونستريح من هذا التَّعب الدَّائم»[٣].

---

(١) الكامل في التَّاريخ، حوادث سنة ٥٨٧هـ.
(٢) السُّلوك للمقريزي ١/١٠٦.
(٣) النَّوادر السُّلطانيَّة ٣١٤، الرَّوضتين ٢/١٩١-١٩٣.

وفي المفاوضات تمسَّك ريتشارد ببيت المقدس وعسقلان واستعادة الأُردن، أي إرجاع مملكة بيت المقدس إلى حالها القديم كما كانت سنة ١١٨٥م، ورفض صلاح الدِّين، فالقدس مسرى نبينا ﷺ، سار بعدها ريتشارد في ٢٣ أيار (مايو) ١١٩٢م للاستيلاء على بيت المقدس، فأخذت القوات الإسلامية تطارده وتغير على قواته، وفوجئ باستعدادات صلاح الدين الذي:

١- وزّع أسوار بيت المقدس على الأُمراء للدِّفاع عنها.

٢- وأفسد ماء الشُّرب الذي كان حول بيت المقدس بتخريب الصَّهاريج والآبار.

٣- إغارات فرسان المسلمين بإغارات مفاجئة على معسكر الصَّليبيِّين.

٤- وبينما كان الصَّليبيُّون ينتظرون في ١٧ حزيران (يونيو) ١١٩٢م قافلة قادمة من يافا تحمل إليهم المؤن والإمدادات، إذ بفرقة من المسلمين بقيادة بدر الدِّين دلدرم تغير عليها، «فقتلوا وأسروا وفازوا ونُصِروا»[1].

فساءت أحوال الصَّليبيِّين، نقص في المؤن والماء مع شدَّة

(١) الفتح القسي ٣٣٣.

الحرارة، ومع كلِّ ذلك استطاع ريتشارد مباغتة قافلة ضخمة قادمة من مصر في ٢٣ حزيران (يونيو) ١١٩٢م فيها إمدادات لبيت المقدس، وأخذ ما فيها، ويذكر ابن شدَّاد الذي حاول تسكين ألم صلاح الدِّين حينما سمع الخبر دون جدوى، «فما مرَّ بالسُّلطان خبر أنكى منه في قلبه»، لأنَّه حذَّر القافلة مراراً من ريتشارد وجيشه.

زامن ذلك اشتداد تيَّار التَّنافر بين الأتراك والأكراد في جيش صلاح الدِّين، مع بعض أعمال التمرُّد بدمشق وغيرها، ويقول ابن شدَّاد: إنَّ صلاح الدِّين دخل المسجد الأقصى، «وصلى ركعتين، ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات، ودموعه تتقاطر على مصلاه»[١].

ويسبب الخلاف الحاد في صفوف الصَّليبيِّين بين مؤيِّد لفكرة مهاجمة بيت المقدس، وبين مؤيِّد فكرة الانسحاب لعدم وجود مياه خارج المدينة، قرَّر ريتشارد الانسحاب إلى الرَّملة، وبعث رسله في طلب الصُّلح[٢]، واجتمعت رغبته في تصفية الموقف، لعودة سريعة إلى بلاده، ورغبة صلاح الدين في التَّفرُّغ لشؤون دولته.

---

(١) النَّوادر السُّلطانيَّة ٣٥٥.

(٢) السُّلوك ١/١٠٩.

صلح الرَّملة ٢ أيلول (سبتمبر) ١١٩٢م

مرض ريتشارد في يافا، وساءت أحوال بلاده، فأرسل إلى صلاح الدِّين رسالة مع أحد الأمراء، «سلِّم على السُّلطان وقل له: بالله عليك أجب سؤالي في الصُّلح، فهذا الأمر لابدَّ له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر، وما في دوام هذا مصلحة لا لنا، ولا لكم».

وتَّم الصُّلح بالبنود التَّالية:

١- المنطقة السَّاحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف للصَّليبيِّين.

٢- عسقلان للمسلمين.

٣- الرَّملة واللُّد مناصفة بين المسلمين والصَّليبيِّين.

٤- للمسيحيِّين حرِّيَّة الحج إلى الأماكن المقدَّسة في بيت المقدس، دون أيِّ ضريبة قبالة ذلك[1].

٥- مدَّة الصُّلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٦- حرِّيَّة التَّنقُّل من كلا الجانبين في أرض الآخر، قال

---

(١) لم يكد يتم صلح الرَّملة حتَّى قدم هربرت أُسقف سالسبوري بزيارة بيت المقدس.

صلاح الدِّين: إن الصُّلح قد انتظم، من شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل.

٧- اشترط صلاح الدِّين دخول بلاد الإسماعيليَّة (الباطنيَّة) في الصُّلح.

٨- واشترط الصَّليبيُّون دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصُّلح[(١)].

وقَّع الصُّلح عن الصَّليبيِّين: هنري دي شامبني، وباليان الثَّاني دي إبلين، وأونفروي الرَّابع دي تورون، ومثَّل جانب المسلمين: الملك الأفضل، والملك الظَّاهر ابنا صلاح الدِّين، وأخوه الملك العادل، وغيرهم من الأمراء، وغادر ريتشارد إلى إنكلترة في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٩٢م[(٢)].

ويذكر المقريزي[(٣)] ارتياح الطَّرفَيْن التَّام لهذا الصُّلح، فطريق الحجاز مفتوح أمام المسلمين، وطريق بيت المقدس مفتوح للمسيحيِّين، وكان يوم الصُّلح يوماً مشهوداً، عمَّ فيه الطَّائفتين الفرح والسُّرور، لما نالهم من طول الحرب.

---

(١) لجأ أمير طرابلس بوهيموند الثَّالث إلى صلاح الدِّين، وزاره في بيروت.
(٢) مفرِّج الكروب ٢/ ٤٠٤.
(٣) السُّلوك ١/ ١١٠.

وتجلَّت سماحة صلاح الدِّين وشهامته ومروءته من جديد، حين وافق على طلب هربرت أُسقف سالسبوري على تعيين اثنين من رجال الدِّين في كلٍّ من كنيسة القيامة، وكنيسة بيت لحم، وكنيسة النَّاصرة، إلى جانب من كان فيها من رجال الدين الأرثوذكس والسُّريان واليعاقبة.

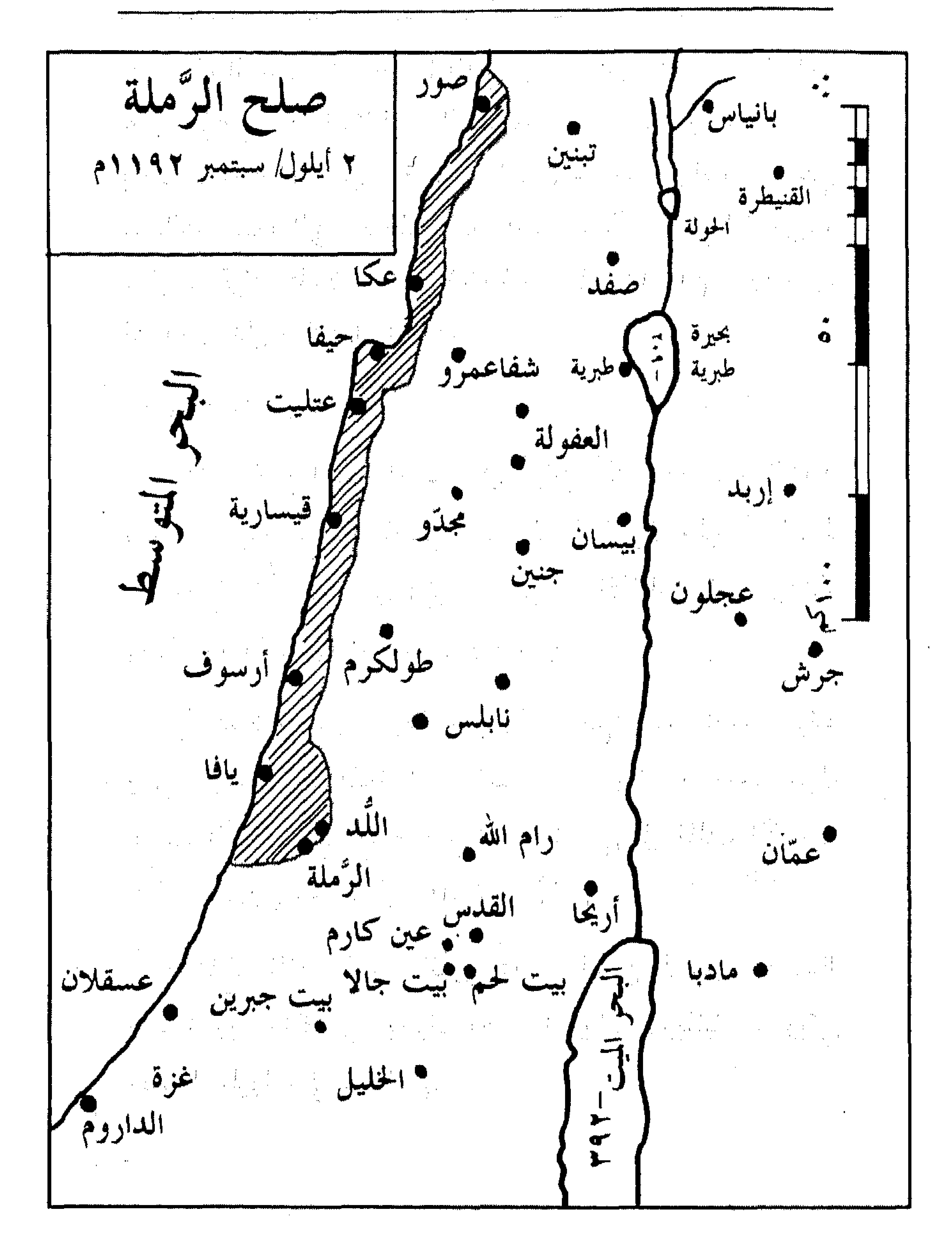
إن صلاح الدِّين لم يقدم على مصالحة الصَّليبيين مختاراً، وإنَّما اضطرته الظُّروف إلى ذلك اضطراراً، ولو سارت الأُمور على ما يشتهي لاستمر في الجهاد حتَّى تتحقَّق غايته الكبرى، وهي تطهير بلاد الشَّام من الدُّخلاء الغربيِّين[1]، وهذا ما قاله ابن شدَّاد الذي كان جليس صلاح الدِّين: «ولكنَّه رأى المصلحة في الصُّلح لسآمة العسكر، وتظاهرهم بالمخالفة»، لقد ساد فتور في صفوف جند صلاح الدِّين بعد تحرير القدس، سببه:

١- بُعْدُ الجند عن بلادهم، وقد مَلُّوا طول القتال.

٢- والأُمراء أنفسهم رغبوا في العودة إلى إماراتهم ومدنهم، وبعضها في الجزيرة وراء الفرات، وقد تحقَّق الهدف العام الأساسي، وهو تحرير بيت المقدس.

ومع ذلك يرى المؤرخون فشل الحملة الصَّليبيَّة الثَّالثة، التي لم

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٩٠٠.


صلح الرَّملة
٢ أيلول/ سبتمبر ١١٩٢م
صور
تبنين
بانياس
القنيطرة
الحولة
صفد
عكا
حيفا
شفاعمرو
طبرية
بحيرة طبرية
عتليت
العفولة
البحر المتوسط
قيسارية
مجدّو
بيسان
إربد
جنين
عجلون
جرش
طولكرم
أرسوف
نابلس
يافا
اللُّد
رام الله
عمّان
الرَّملة
القدس
أريحا
عين كارم
مادبا
عسقلان
بيت جالا
بيت لحم
بيت جبرين
البحر الميت
الخليل
غزة
الداروم

تنجح في الوصول إلى هدفها الذي جاءت إلى الشَّرق من أجله، على الرَّغم من إمكاناتها الضَّخمة، والوضع يتلخَّص بعد إخفاقها وانتهائها، في سيطرة الصَّليبيِّين على شاطئ البحر، وهي (مملكة عكا) التي حافظت على اسم (مملكة بيت المقدس)، وبقيت قرناً كاملاً: من ١١٩١م، إلى ١٢٩١م، وسيطرة المسلمين على البلاد الدَّاخليَّة.

ما بعد صلاح الدين

توفِّي صلاح الدين الأيوبي في أوائل آذار (مارس) ١١٩٣ بدمشق، بعد مرض قصير، فحزن المسلمون عليه، وأفرط المؤرِّخون الأوربيُّون في التَّرحم عليه، والإشادة بقوَّته وعدله وتسامحه، واعترفوا أنَّه شخصيَّة متميِّزة.

ترك صلاح الدِّين سبعة عشر ولداً، مع إخوة وأبناء إخوة، ومن المؤسف أنَّ المنازعات قامت بين هؤلاء الورثة، حول تقسيم التَّركة، مع أنَّ صلاح الدِّين أوصى إلى الملك الأفضل بالسُّلطة من بعده، وانجلى الموقف عمَّا يلي:

- الملك الأفضل نور الدِّين علي - الابن الأكبر - احتفظ بدمشق وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبُصْرى وبانياس.. وبقي حاكماً عليها حتَّى ١١٩٦م.

- الملك العزيز عثمان - الابن الآخر - احتفظ بمصر، وبقي حاكماً عليها حتَّى ١١٩٨م.

- الملك الظَّاهر غازي - الابن الثَّالث - احتفظ بحلب وشمال بلاد الشَّام حتَّى ١٢١٥م.

- الملك العادل سيف الدِّين أبو بكر - أخو صلاح الدِّين - احتفظ بالكرك والأردن والجزيرة وديار بكر.

- ووزِّعت إقطاعات ثانويَّة على بقيَّة إخوة صلاح الدِّين وأبنائه.

ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي، ممَّا أغرى الغرب الأوربي على القيام بحملة صليبيَّة جديدة لاسترداد بيت المقدس، ولاسيما أنَّ صلح الرَّملة ينتهي أجله في كانون الأوَّل (ديسمبر) ١١٩٥م، فسار هنري السَّادس إمبراطور ألمانية لاحتلال القسطنطينيَّة ثم بيت المقدس، فوصلت جموع الألمان دفعات بعد أخرى سنة ١١٩٧م، ولكنها فشلت لعدم مجيء الإمبراطور أو أحد كبار قادته على رأس الحملة، وتبدَّدت الحملة الألمانية في شباط (فبراير) ١١٩٨م، دون ترك أثر في بلاد الشَّام.

الحملة الصَّليبيَّة الرَّابعة

تمكَّن السُّلطان العادل صفي الدِّين توحيد الدَّولة الأيوبيَّة من جديد، ونظَّمها، ومن ثمَّ عادت الجبهة الإسلاميَّة متَّحدة.

وحينما تولَّى البابا أنوسنت الثَّالث سنة ١١٩٨م، وضع برنامجاً هدفه: محو آثار حروب صلاح الدِّين في الشَّرق، واستعادة بيت المقدس مرَّةً أُخرى من المسلمين، فكانت الحملة الصليبية الرابعة، التي استهدفت مصر التي تشكِّل العمق الاستراتيجي لبلاد الشَّام في حرب الصَّليبيِّين، فهي مركز المقاومة الهام، والمخزن البشري الكبير.

انحرفت الحملة الرَّابعة عن هدفها واتَّجهت إلى القسطنطينيَّة، واستولت عليها سنة ١٢٠٤م، وهي بلد مسيحي أباحوه لجند الحملة، فَنُهِبَت البلد، حتَّى الكنائس والأديرة لم تسلم من أيديهم وعبثها، حتَّى تمنَّى شاهد عيان اسمه نقتاس خونياتس أن لو كانت العاصمة البيزنطيَّة سقطت في يد المسلمين بدلاً من سقوطها في أيدي الصَّليبيين[١]، لقد قارن أهل القسطنطينيَّة بين سماحة المسلمين حينما استعادوا بيت المقدس، وبين ما فعلته الحملة الرَّابعة التي اقتحم جندها كنيسة القدِّيسة صوفيا وهم سكارى، فمزَّقوا السَّتائر والبسط.. وداسوا الكتب المقدَّسة بأقدامهم،

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٩٣٥.

وحطَّموا الأيقونات الفضِّيَّة ذات القيمة الفنِّيَّة النَّادرة، وباع الصَّليبيُّون كثيراً من منهوباتهم إلى المسلمين، وبعد هذا كلِّه، أمر طبيعي أن يحرقوا الجامع الَّذي كان للمسلمين في القسطنطينيَّة.

وبعد انتهاء موجة النَّهب والسَّلب والحرق عُيِّن بلدوين الرَّابع إمبراطوراً للقسطنطينيَّة، وتوماس موروسيني بطريركاً، وهو أوَّل كاثوليكي يتولَّى رئاسة كنيسة القسطنطينيَّة، ولم تعد القسطنطينيَّة إلى أصحابها البيزنطيِّين إلاَّ سنة ١٢٦١م على يد ميخائيل الثَّامن.

وهكذا انحرفت الحركة الصَّليبيَّة في حملتها الرَّابعة:

١- ارتكبت جرماً وحماقة أيَّدا وجهة نظر البيزنطيين، أن الحملات الصَّليبيَّة منذ بدئها غزوات بربريَّة همجيَّة، مغلَّفة بالدِّين.

٢- وهي تحوُّل خطير في تاريخ الحملات الصَّليبيَّة، إذ احتلَّت التِّجارة والاقتصاد المكانة الأُولى في الأهداف.

٣- زادت البغضاء، ونما العداء بين الكنيستين الشَّرقية والغربيَّة، وحرمت الصَّليبيِّين بالشَّام من مساعدة المسيحيِّين في القسطنطينية وقت الشِّدَّة.

٤- وقيام الإمبراطوريَّة اللاَّتينيَّة في القسطنطينية والبلقان، ترك أثراً خطيراً في حياة الصَّليبيِّين بالشَّام، لأنَّ الإمبراطوريَّة

الجديدة بدأت تجتذب كثيراً من المغامرين الغربيّين الذين فكّروا في النُّزوح إلى الشَّرق، واستهوت كثيرين من فرسان الصَّليبيّين في بلاد الشام ذاتها، مما زاد في ضعف مركز الصَّليبيين بالشَّام، حتى بات معروفاً عند مؤرِّخي الحروب الصَّليبيَّة «أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت بفشل الحركة الصَّليبيَّة بأكملها»[١].

حملة الأطفال

وفي سنة ١٢١٢م كانت حملة الأطفال، حينما ادَّعى طفل في الثَّانية عشرة من عمره، اسمه ستفن الفرنسي، أن المسيح ظهر له وسلَّمه رسالة يحثُّ فيها على قيام حملة أطفال، ستنشق لهم البحار في مسيرتهم لتنصير المسلمين في الشَّرق، وانتقلت العدوى إلى ألمانية على يد الطِّفل نقولا، سهَّل ذلك المستوى الفكري الأوربِّي في القرون الوسطى في اعتقاده بالخرافات وخوارق العادة.

وكان مصير هذه الحملة موت هؤلاء الأطفال في رحلتهم في أوربة عبر ممرات جبال الألب، وفي البحر المتوسِّط الذي لم ينشق لهم، ومن بقي منهم حيّاً بيع رقيقاً في شمال إفريقية.

الحملة الهنغاريَّة

وكانت الحملة الهنغارية سنة ١٢١٧م بزعامة ليوبولد السَّادس

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٩٣٩.

دوق النّمسة، وأندريه الثّاني ملك هنغاريّة، انتهت عام ١٢١٨م دون أن تحقّق عملاً ذا أهميّة بالنّسبة للموقف في بلاد الشام.

الحملة الصليبية الخامسة

وكانت الحملة الصّليبية الخامسة سنة ١٢١٨م على مصر، وسببها: دعوة البابا أنسونت الثّالث، ثمّ تعهدها بعده البابا الجديد هونريوس الثّالث.

واعتقاد الصليبيين أن مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة، فهي مخزن الإمدادات في العالم الإسلامي.

قاد الحملة حنادي برين الذي سار من عكا بجموع صليبية وفدت على بلاد الشام، قاصداً دمياط، ولم يفت الصليبيين أن يتصلوا بنجاشي الحبشة، ليتعاون معهم في ضرب الإسلام والمسلمين، عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة.

وصلت السُّفن الصليبية مصبَّ فرع دمياط أواخر أيار (مايو) ١٢١٨م، فسار الملك الكامل الذي ينوب عن أبيه السلطان العادل في حكم مصر، ونزل جنوبي دمياط بمن معه من الجند، ولكنَّه فرَّ مساء ٥ شباط (فبراير) ١٢١٩م بسبب خيانة ومؤامرة قادها عماد الدِّين أحمد بن علي المعروف بابن المشطوب، فحضر المعظم عيسى أخو الكامل إلى مصر، وصار الموقف حرجاً حينما وصلت الأخبار عن تقدُّم جيوش جنكيزخان، وتهديده للدولة

الخوارزميَّة، مما أثار مشكلة الدِّفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي ضد التَّتار، فالهدف تطويق الجبهة الإسلامية، لقد وصل التَّتار إلى الرَّيِّ وهمدان وقزوين، وأصبحوا على أبواب العراق.

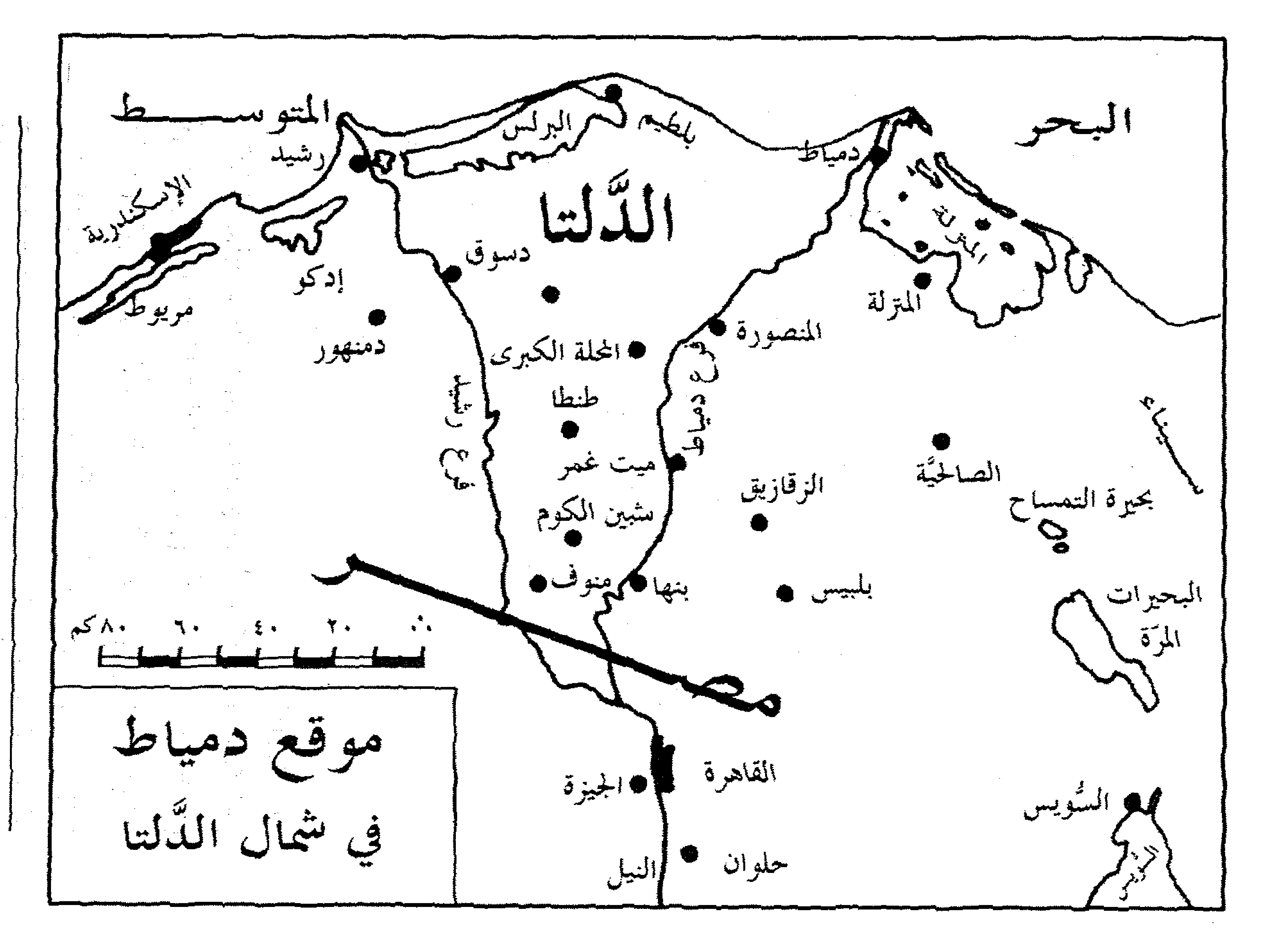
وبعد حصار تسعة أشهر، اقتحم الصليبيُّون دمياط في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢١٩م، وبعد وصول إمدادات لهم، اتجهوا إلى القاهرة[١].

واجتمع الإخوة الثلاثة: المعظم والأشرف والكامل أبناء العادل في المنصورة، لمواجهة زحف الصليبيين وإيقافه، وفي أول ليلة من آب (أغسطس) ١٢٢١م ارتفع فيضان النِّيل، وقطع المسلمون السُّدود، فغرقت الأراضي المحيطة بالصليبيين، وقرروا الارتداد بسرعة نحو دمياط، ولكن الكامل أنزل جيشاً قطع خط الرجعة على الصليبيين، فطلبوا السماح لهم بالخروج من هذا المأزق، وسيتركون دمياط ويغادرون مصر، وقبل الكامل على الرغم من معارضة أخوَيْه المعظَّم والأشرف، فقد كان الموقف يسمح بإفنائهم جميعاً.

وتمَّ الجلاء عن دمياط في ٧ أيلول (سبتمبر) ١٢٢١م، ودخلها الكامل في اليوم التالي، وهكذا أخفقت الحملة الصَّليبيّة

(١) الحركة الصليبية ٩٧٤ .

الخامسة، يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٤هـ: «إنَّ الله تعالى آتى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم، فإنَّهم كانت غاية أَمانيهم أن يسلِّموا البلاد التي أُخذت منهم [من الصَّليبيِّين] بالشَّام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها».


موقع دمياط
في شمال الدَّلتا
البحر المتوسط
الدَّلتا
الإسكندرية
مريوط
رشيد
إدكو
دمنهور
دسوق
البرلس
بلطيم
دمياط
المنزلة
المنصورة
المحلة الكبرى
طنطا
ميت غمر
شبين الكوم
منوف
بنها
فرع رشيد
فرع دمياط
الزقازيق
بلبيس
الصالحيَّة
بحيرة التمساح
البحيرات المرَّة
سيناء
مصر
القاهرة
الجيزة
حلوان
النيل
السُويس
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ كم

الحملة الصَّليبيَّة السَّادسة

حضّ البابا فردريك الثَّاني(١) على قيادة حملة صليبيَّة، ولكن نزاعاً حادّاً بين البابويَّة والإمبراطورية أثار خلافاً بينهما، لقد وعد فردريك الثاني البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥م بالقيام بحملة صليبية، ولكنه ماطل، مما أفزع البابا، فلم يكن جادّاً في مشروعه الصليبي، وهو الذي تربَّى وتعلَّم في صقِلِّيَّة حيث المؤثِّرات العربيَّة الإسلامية، فنشأ فيلسوفاً أجاد ست لغات من بينها اللُّغة العربيَّة، وتذوَّق الشِّعر العربي، فهو لا يملك ذاك الحافز الذي يدفعه إلى دخول حرب ضد الإسلام والمسلمين، فهو الذي نشأ في صقِلِّيَّة في كنف الحضارة الإسلاميَّة، وشبَّ على حبِّ المسلمين وحضارتهم(٢).

وكان الكامل الأيوبي مولعاً بالتَّاريخ والفلسفة والعلوم، وكان بينه وبين فردريك الثَّاني مراسلات لحل بعض مسائل في الهندسة والرياضيَّات والفلسفة، وهذا ممَّا جعل الحملة السَّادسة تكتسي بمسحة من التَّسامح، حتَّى اتُّهم فردريك الثاني بمُيله إلى الإسلام وممالأته على حساب المسيحية، ومال فولتير

(١) فردريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠م) ملك صقِلِّيَّة، ثمَّ إمبراطور ألمانية ١٢٢٠-١٢٥٠م، حفيد بربروسا.

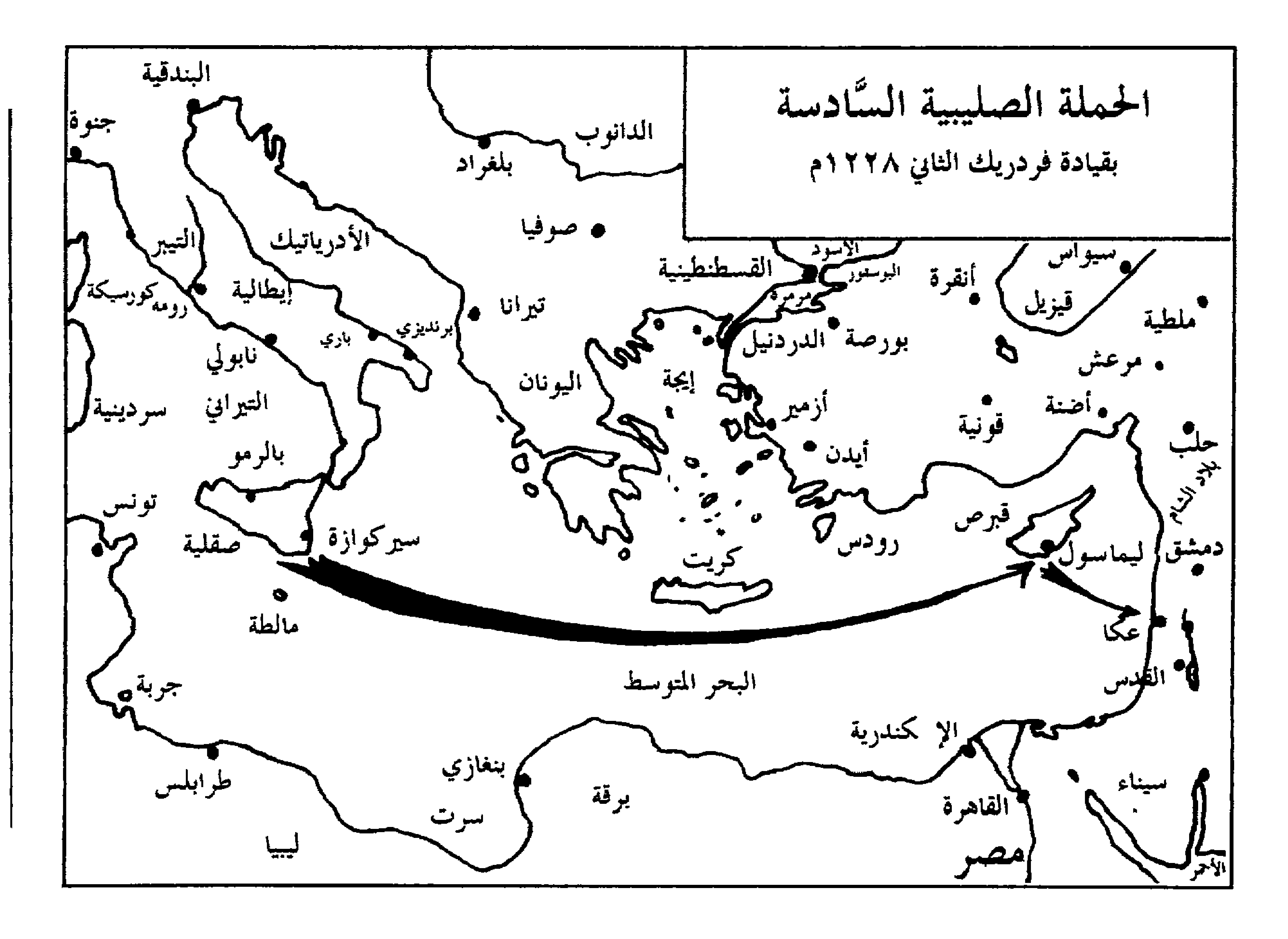
(٢) مفرِّج الكروب ٣/ ٢٥٢.

ومونتسيكيو وآخرون بأن كراهيَّة فردريك الثَّاني للبابويَّة والكنيسة الغربيَّة، هي التي دفعته إلى حبِّ الإسلام والمسلمين[١].

أصدر البابا قرار حرمان ضد فردريك الثاني في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٢٢٧م بسبب عدم تنفيذ وعده بقيادة حملة صليبية، فأدرك فردريك الثاني أن مصلحته تستدعي القيام بحملته حتّى يفوّت على البابا غرضه في إظهار الإمبراطور في صورة المسيحي العاق، فخرج بقوَّة صغيرة من رجاله وقصد عكا في حزيران (يونيو) ١٢٢٨م، فكانت الحملة الصليبية السادسة، وهي أغرب الحملات الصليبية قاطبة، فالحملات السَّابقة حظيت بعطف البابا وبركته، وهذه الحملة جاءت ملعونة من البابا، وإذا كانت الحملات السَّابقة تحرص على جلب ما أمكنها من الرِّجال والسِّلاح والخيل لمحاربة المسلمين، مع روح العداء والتَّشفي والانتقام، فإن حملة فردريك الثاني ضمَّت خمس مئة فارس فقط، مع روح التَّسامح، وكأنها نزهة جميلة قام بها إلى الشرق لزيارة صديقه الكامل، فوصل عكا عن طريق قبرص في ٧ أيلول (سبتمبر) ١٢٢٨م.

---

(١) الحركة الصليبية ٩٩٧.

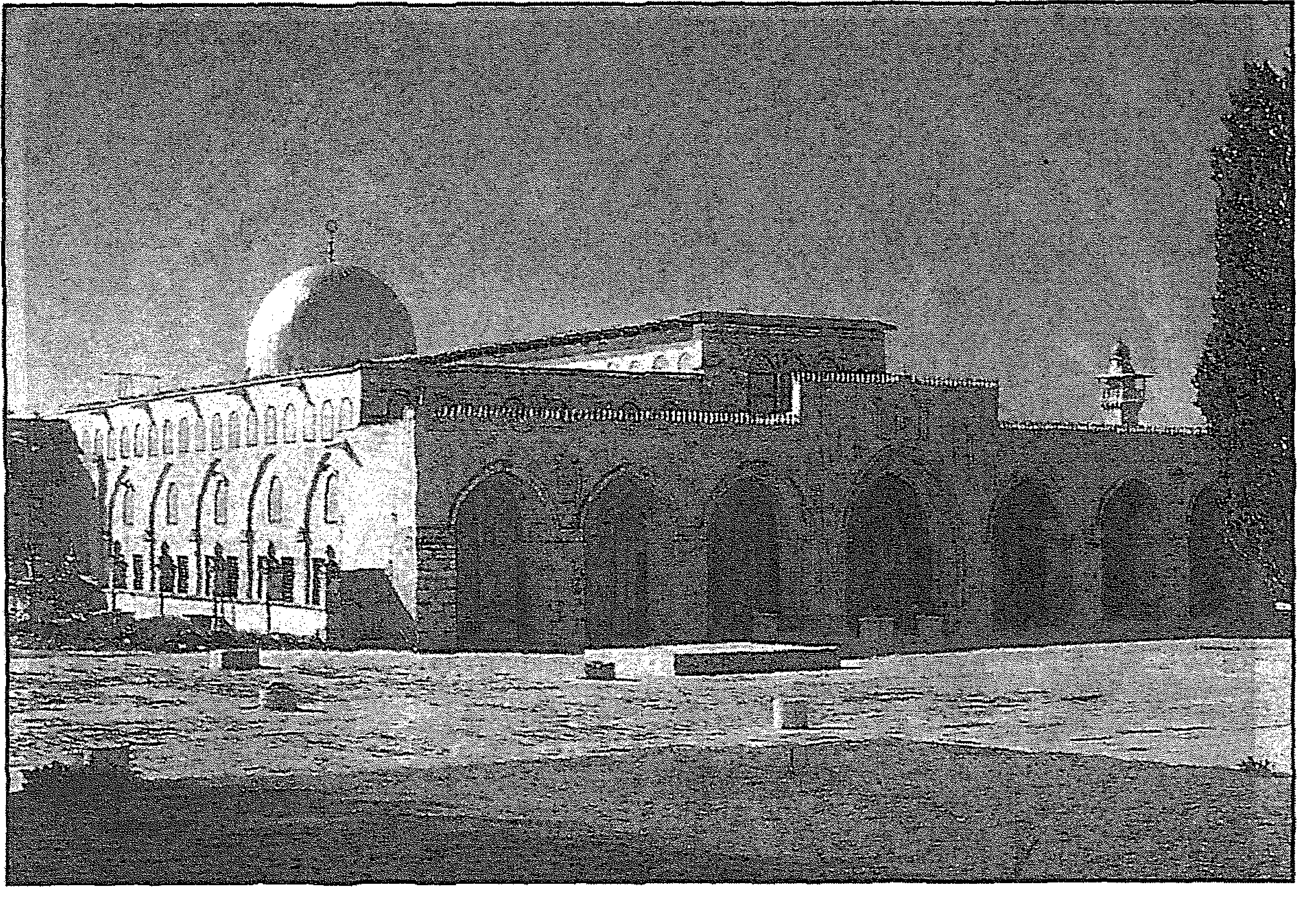

الحملة الصليبية السَّادسة
بقيادة فردريك الثاني ١٢٢٨م
البندقية
جنوة
الدانوب
بلغراد
صوفيا
التيبر
الأدرياتيك
كورسيكا
روما
إيطالية
تيرانا
برنديزي
باري
نابولي
التيراني
سردينية
بالرمو
اليونان
إيجة
القسطنطينية
الأسود
البوسفور
مرمرة
الدردنيل
بورصة
أنقرة
سيواس
قيزيل
ملطية
مرعش
أضنة
قونية
أزمير
أيدن
حلب
بلاد الشام
تونس
صقلية
سيركوازة
مالطة
كريت
رودس
قبرص
ليماسول
دمشق
عكا
القدس
البحر المتوسط
جربة
طرابلس
بنغازي
سرت
برقة
ليبيا
الإ كندرية
القاهرة
مصر
سيناء
الأحمر

وبعد مفاوضات بين السُّلطان الكامل الأيوبي وفردريك الثاني، وُقِّع صلح يافا سنة ١٢٢٩م لمدَّة عشر سنوات، على أن يأخذ الصَّليبيُّون بيت المقدس وبيت لحم والنَّاصرة، فضلاً عن تبنين وصيدا، على أن تكون سائر قرى القدس للمسلمين، وأنَّ الحرم يكون بأيدي المسلمين، لا يدخله الفرنج إلاَّ للزِّيارة فقط، مع رفع الأذان والصلاة[1].

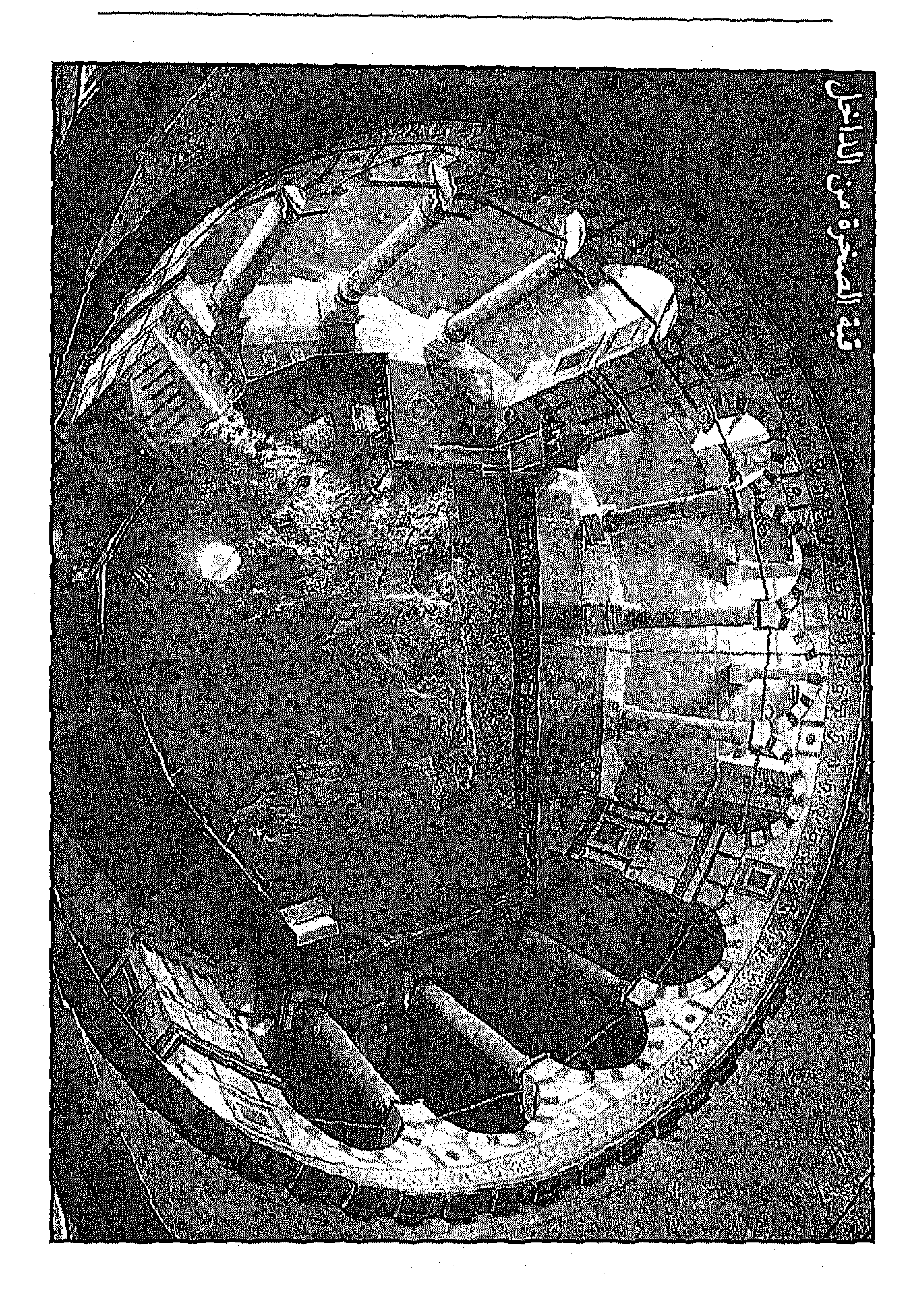
لقد فرَّط الكامل ببيت المقدس «فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتدَّ الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشَّناعات عليه في سائر الأقطار».

وبعد زيارة فردريك كنيسة القيامة في بيت المقدس، عاد إلى إيطالية فوصلها في ١٠ حزيران (يونيو) ١٢٢٩م، واعترفت الكنيسة بما حقَّقه فردريك الثاني من كسب للمسيحيَّة، وعقدت معه صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠م، وبمقتضاه رُفِعَ قرار الحرمان عن الإمبراطور.

(١) السُّلوك للمقريزي ١/ ٢٣٠.



المسجد الأقصى - من الآثار المعمارية للأمويين في القدس



قبة الصخرة من الداخل

الخوارزميّة واسترداد بيت المقدس

دبَّ خلاف في البيت الأيوبي، ووقع في حالة شديدة من الفوضى، في الوقت الذي تعرَّضت بلاد الشَّام لغزو جموع الخوارزميَّة[١] من ناحية، وتهديد التَّتار من ناحية ثانية، ومجيء الحملة الصليبية الفرنسيَّة سنة ١٢٣٩م بقيادة ريتشارد كورنوول، أخي هنري الثالث ملك إنكلترة[٢].

نشبت خلافات بين ملوك الأيوبيِّين الثلاثة: الصالح أيُّوب في مصر، وعمه الصَّالح إسماعيل في دمشق، وساند النَّاصر داود في الأُردن الصَّالح إسماعيل، ولجأ إلى طلب مساعدة الصليبيين الذين وافقوا على أن يتسلَّموا بيت المقدس بما فيه المسجد الأقصى وقبَّة الصخرة، فأساؤوا لمشاعر المسلمين وآذوهم، حتَّى وقف الرُّهبان على الصَّخرة وزجاجات الخمر بأيديهم، وأُبطل الأذان بالحرم[٣]، فلم يجد الصَّالح أيُّوب ملك مصر بُدّاً من

(١) سلطان الخوارزميَّة الأتراك جلال الدِّين منكبرتي، كانت دولته فيما وراء النهر وخراسان وفارس وسجستان..، دمَّر جنكيزخان سنة ١٢٢٠-١٢٢٢م دولتهم، وبعد عودته إلى عاصمة قراقورم، اتَّخذ جلال الدين أصفهان عاصمة ووصل في حروبه ضواحي بغداد، وبلغ جورجية وآسية الصُّغرى شمال بلاد الشام، فجاور أملاك الملك الأشرف بن العادل الأيوبي.

(٢) الحركة الصليبية ٩٩٨.

(٣) عقد الجمان للعيني، حوادث سنة ٦٤١هـ.

الاستعانة بالخوارزميَّة الذين وصلوا آسية الصُّغرى، فاندفع عشرة آلاف منهم عبر بلاد الشَّام صوب بيت المقدس، واقتحموها في ١١ تموز (يوليو) ١٢٤٢م، وبذلك عاد بيت المقدس للمسلمين نهائياً حتَّى ١٩١٦م، حيث دخلها أَلَّنبي[١] خلال الحرب العالمية الأُولى، وقال: الآن انتهت الحروب الصليبية.

وحينما سار الخوارزميَّة إلى غزَّة للقاء الجيش المصري الَّذي أرسله الملك الصالح أَيُّوب بقيادة ركن الدِّين بيبرس، جاءت قوَّات التَّحالف: قوَّات إبراهيم صاحب حمص، وجند الصَّالح إسماعيل من دمشق، مع نجدة النَّاصر داود صاحب الكرك، وفي ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤م كانت موقعة غزَّة الثانية، وحلَّت هزيمة ساحقة بالصليبيِّين ومن انضم إليهم في تحالفهم، وعُدَّت هذه المعركة (حطِّين الثانية) لأنها أعظم كارثة حلَّت بالصليبيِّين منذ معركة حطِّين سنة ١١٨٧م.

الحملة الصليبية السابعة على مصر

بعد سماع أُوربة باسترداد المسلمين لبيت المقدس، هيّأت للحملة الصليبية السابعة، التي قادها لويس التَّاسع ملك فرنسة،

(١) إدموند هنري أَلَّنبي (١٨٦١-١٩٣٦م) قائد بريطاني قاد في أثناء الحرب العالمية الأولى الحملة البريطانية إلى بلاد الشام، فاستولى - بروح صليبيَّة - على بيت المقدس، (الموسوعة الثقافيَّة ١١٩).

وبعد إعدادات للحملة دامت ثلاث سنوات اتَّجه سنة ١٢٤٨م بحملة أخذت طابعاً فرنسياً بحتاً لغزو مصر.

وأرسل فردريك الثاني سرّاً رسولاً متخفياً في زيٍّ تاجر قابل السُّلطان الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب، وأخبره أنَّ الملك الفرنسي «عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها»[١].

وقضى لويس التَّاسع وجيشه شتاء ١٢٤٨-١٢٤٩م في قبرص، يحثُّ المغول على التَّوجُّه إلى بلاد الشَّام لمساعدة الصليبيين.

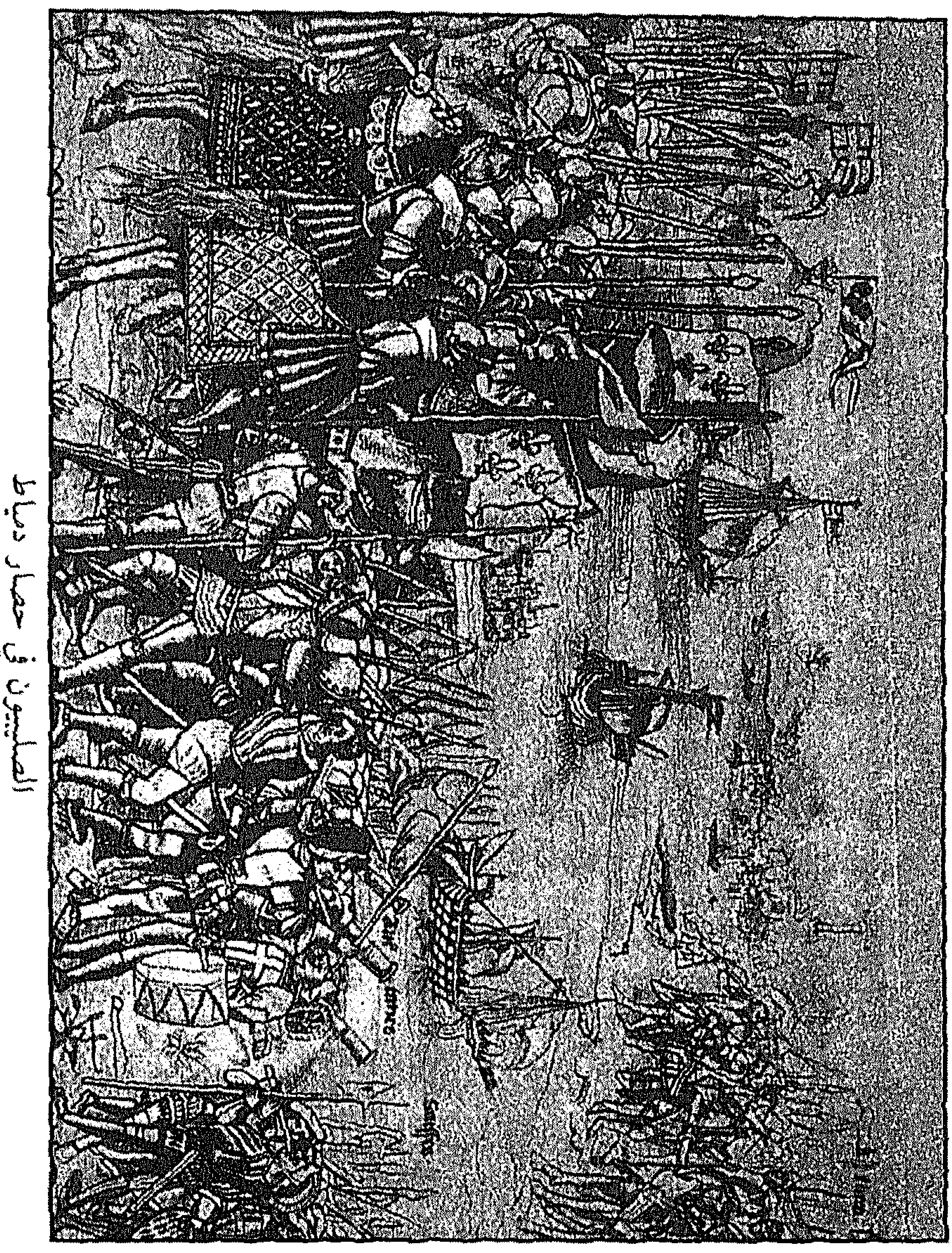
وتمكَّن لويس التاسع من دخول دمياط، وبقي فيها مع جيشه خمسة أشهر، من حزيران (يونيو) إلى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩م، ثمَّ شرع في الزَّحف إلى القاهرة في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩م، ولم يشرع بزحفه، حتَّى توفي السُّلطان الصَّالح أيُّوب في المنصورة في ٢٣ تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٢٤٩م، فترك فراغاً كبيراً، وهنا ظهرت شجرة الدُّر أرملة الصَّالح أيُّوب، التي أخفت خبر الوفاة، وأرسلت إلى حصن كَيْفا[٢]، واستدعت تورانشاه ابن السُّلطان الصَّالح أيُّوب الوحيد، وأخذت تهيِّئ البلاد لمواجهة الصَّليبيِّين، وكأن زوجها على قيد الحياة[٣]،

---

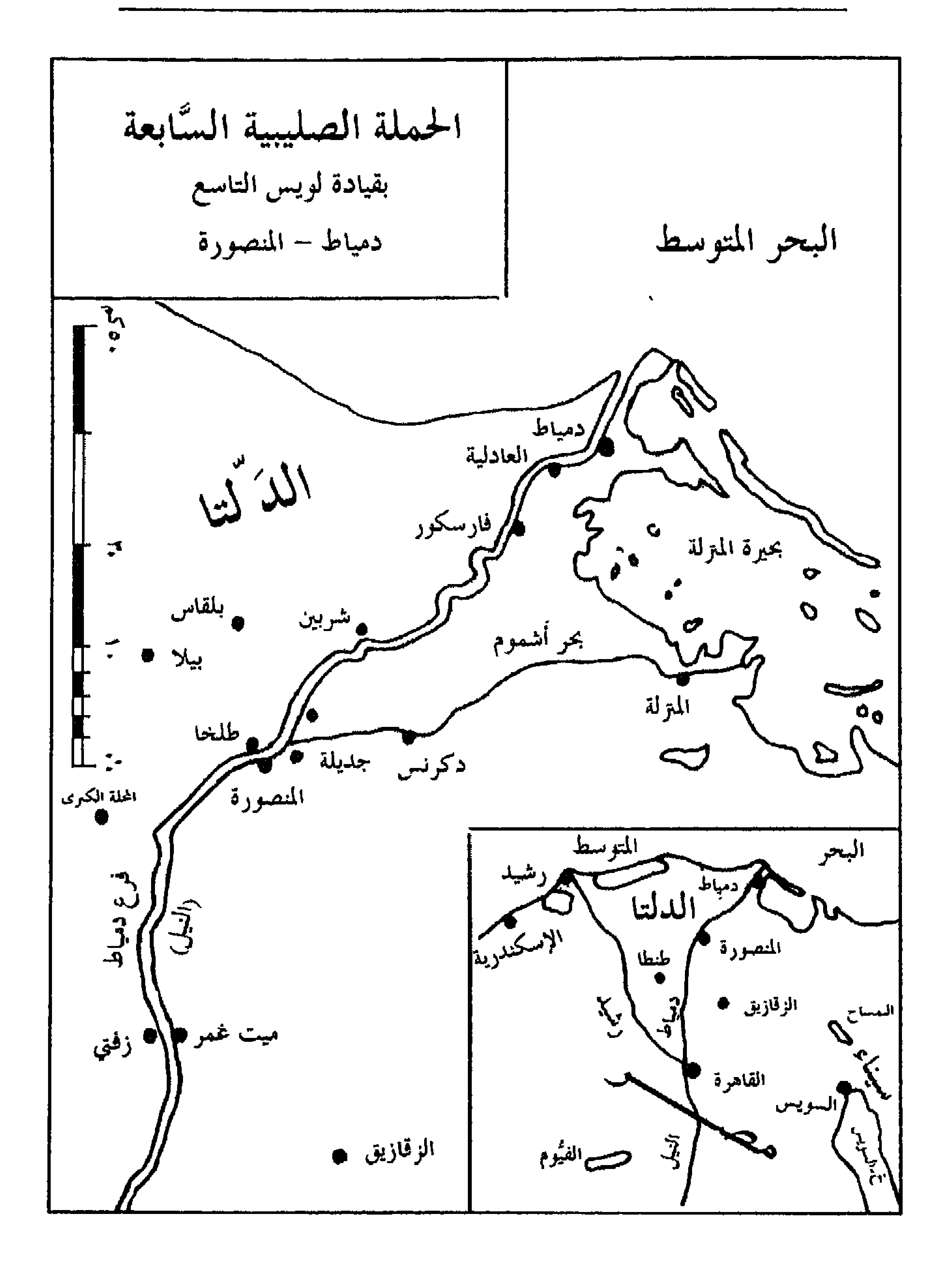
(١) النُّجوم الزَّاهرة ٦/ ٢٨٣.

(٢) حصن كَيْفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (معجم البلدان ٢/ ٢٦٥).

(٣) مفرِّج الكروب لابن واصل ٢/ ٣٦٢.



الصليبيون في حصار دمياط



الحملة الصليبية السَّابعة
بقيادة لويس التاسع
دمياط - المنصورة
البحر المتوسط
الدلتا
دمياط
العادلية
فارسكور
بحيرة المنزلة
بلقاس
شربين
بيلا
بحر أشموم
المنزلة
طلخا
جديلة
دكرنس
المنصورة
المحلة الكبرى
فرع دمياط
(النيل)
ميت غمر
زفتي
الزقازيق
البحر
المتوسط
رشيد
دمياط
الدلتا
الإسكندرية
المنصورة
طنطا
الزقازيق
القاهرة
السويس
الفيوم
النيل

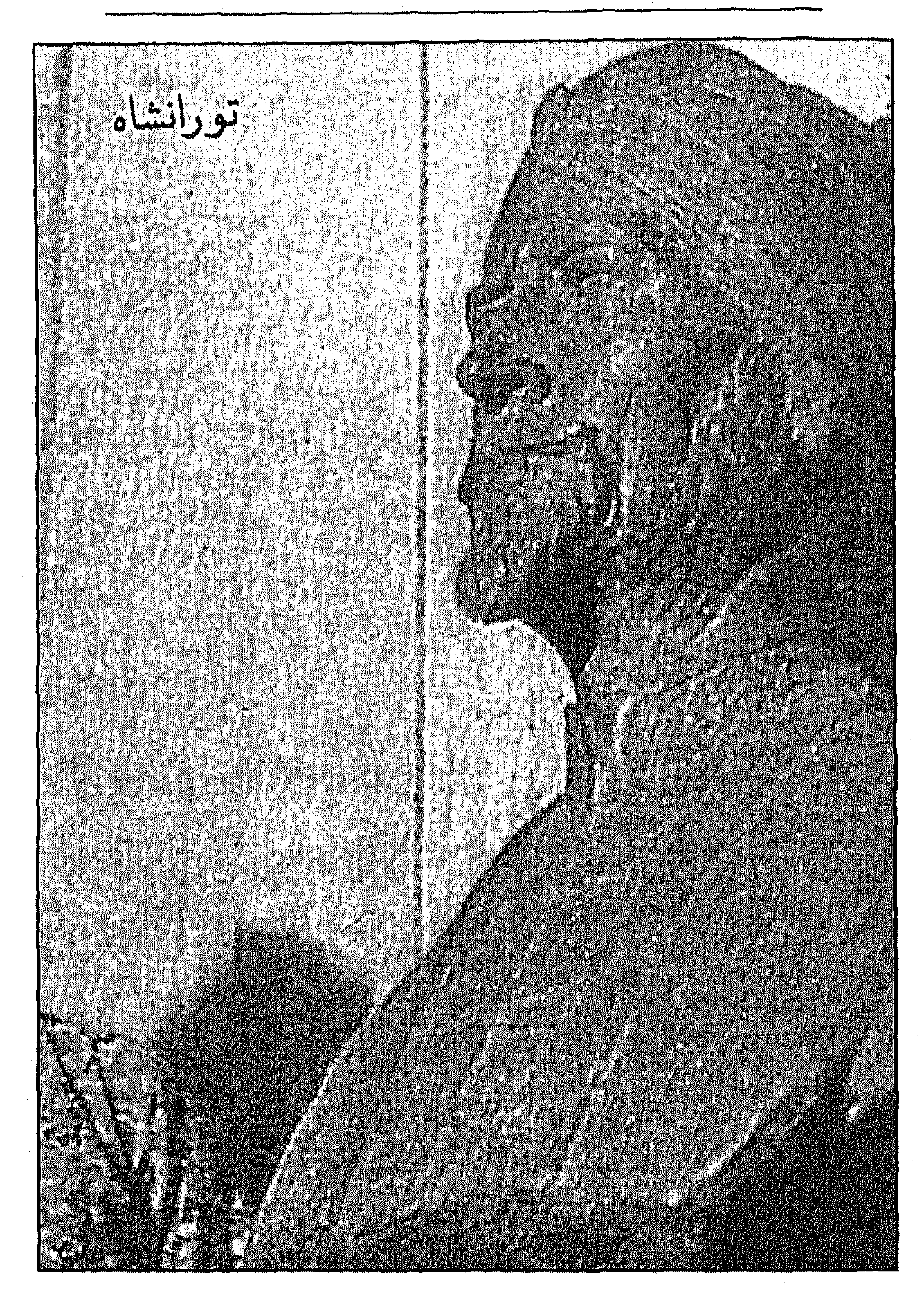
ولكن الخبر تسرَّب إلى المسلمين وإلى الصليبيِّين، ورأى لويس التَّاسع أن يحقِّق هزيمة بالمسلمين قبل وصول تورانشاه.

وعند مدينة المنصورة ظهر قائد جديد من مماليك الصَّالح أيُّوب هو بيبرس البندقداري، فكانت المنصورة (مقبرة الجيش الصَّليبي)، خصوصاً بعد وصول تورانشاه في نهاية شباط (فبراير) ١٢٥٠م، فارتفعت الرُّوح المعنويَّة عند المسلمين، فقرَّر لويس التَّاسع العودة من حيث أتى في نيسان أبريل ١٢٥٠م، ولكن الهزيمة حلَّت به، ووقع جيشه بأجمعه تقريباً بين قتيل وأسير، حتَّى هو سيق أسيراً مكبَّلاً بالأغلال إلى المنصورة، وسجن في دار فخر الدِّين إبراهيم بن لقمان.

ودب خلاف بين تورانشاه وزوجة أبيه شجرة الدُّر، واتَّهمها أنَّها أخفت ثروة أبيه «فداخلها منه خوف كثير، وكاتبت المماليك البحريَّة»[1]، الذَّين قتلوا تورانشاه في ٢ أيَّار (مايو) ١٢٥٠م، وبمقتله انتهى حكم الأيوبيِّين في مصر، وكانت شجرة الدُّر أرملة

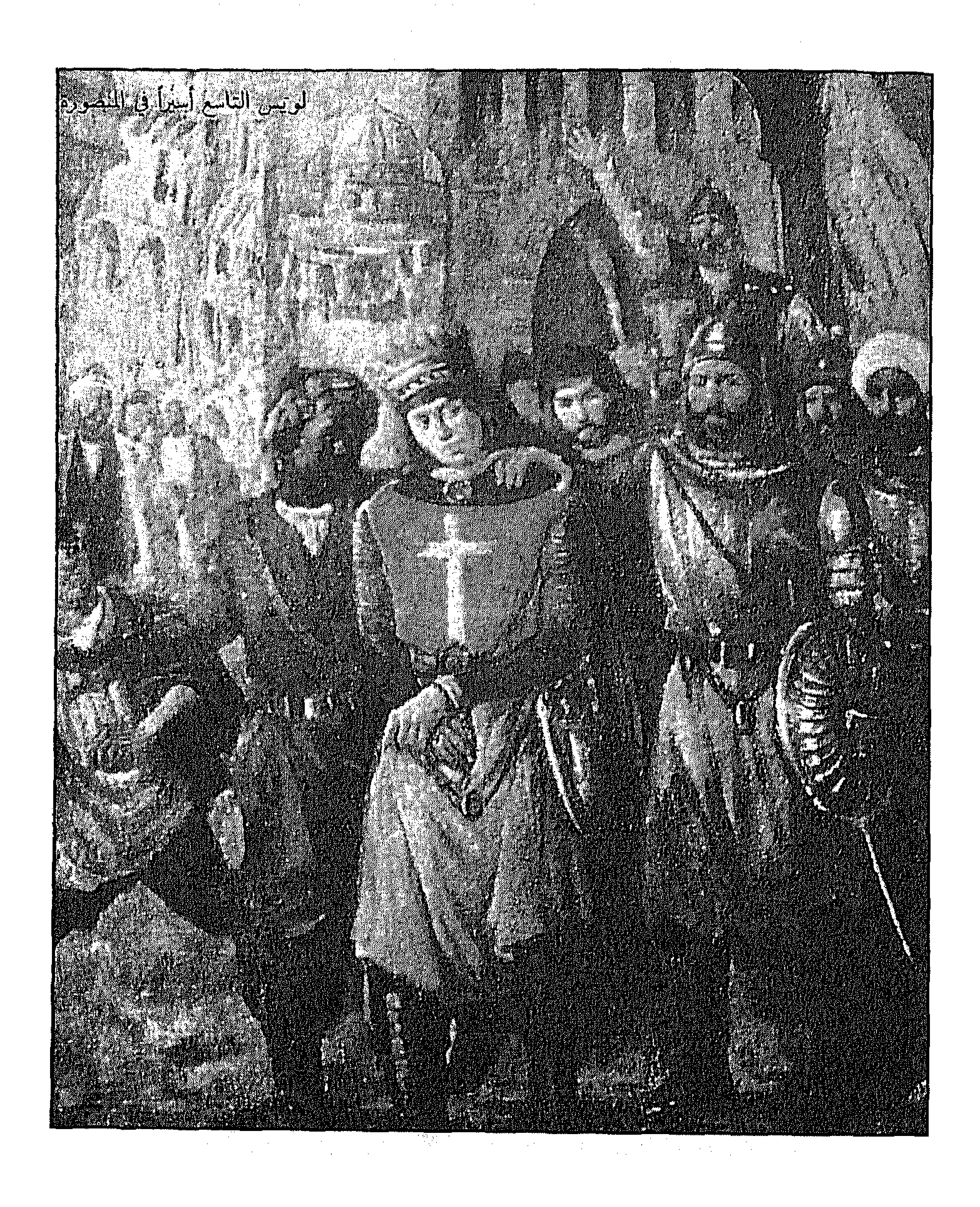
---

(١) السُّلوك للمقريزي ٣٥٩/١، والنُّجوم الزَّاهرة ٣٧١/٦، والمماليك: البحريَّة سُمُّوا بذلك لسكناهم جزيرة الرَّوضة في النيل فدعوا البحريِّين، بدأت دولتهم ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وحتَّى قيام المماليك البرجيَّة، الذين سُمُّوا بهذا الاسم لسكناهم في الأبراج في القاهرة، بقيت دولتهم حتَّى قضى عليهم العثمانيُّون سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م بعد معركة الرِّيدانيَّة، (القاموس الإسلامي ٢٩٧/١).

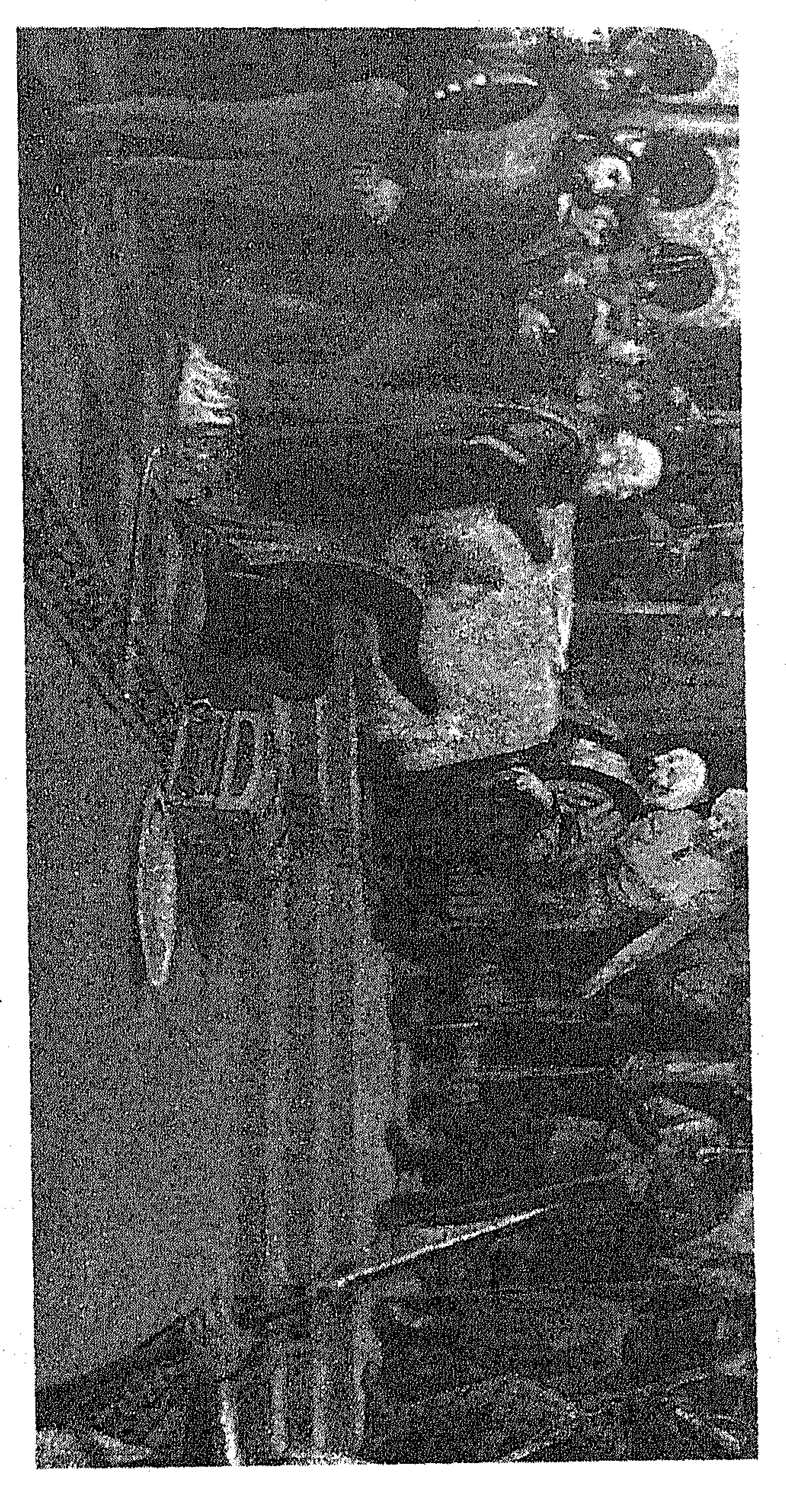

تورانشاه



دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان



لويس التاسع أسيراً في المنصورة



لويس التاسع يدفع فدية لإطلاق سراحه

الصَّالح أيوب أوَّل سلاطين المماليك في مصر، التي تزوَّجت الأمير عزّ الدِّين أيبك التُّركماني أتابك العسكر، الذي أُعلن سلطاناً في نهاية تموز (يوليو) ١٢٥٠م، وبقيت شجرة الدُّر وراء ستار مسيِّرة للأمور كلِّها.

وسنرى كيف أنَّه لم يمضِ على قيام دولة المماليك نيِّف وأربعون سنة، حتَّى تمَّ تطهير بلاد الشام من البقايا الصليبية كافة، وعادت الأرض إلى أصحابها، وطُرِدَ الدُّخلاء الغربيُّون منها.

وبعد انتصار المنصورة الحاسم، وجَّه المماليك جهودهم لتحرير دمياط، وبعد مفاوضات تمَّ إطلاق سراح لويس التَّاسع لقاءَ فدية ٣٠٠ ألف دينار، والانسحاب من دمياط، وألاَّ يقصد سواحل الإسلام مرَّة أُخرى، وفي ٦ أيار (مايو) ١٢٥٠م تسلَّم المماليك دمياط، وغادر لويس التَّاسع دمياط في ٨ أيَّار (مايو) ١٢٥٠م، ليصل بحراً إلى عكا في ١٣ أيار (مايو)، حيث الصَّليبيُّون في بلاد الشَّام يعانون الضَّعف واليأس والانحلال[1].

---

(١) الحركة الصليبية ١٠٧٩:١.

لويس التَّاسع في عكا

قضى لويس التَّاسع أربع سنوات في الشَّام (١٣ أيَّار ١٢٥٠م - ٢٤ نيسان (أبريل) ١٢٥٤م)، لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين، وقام بمحادثات هامَّة مع التتار لتطويق المسلمين، وهو خجل من نفسه أن يعود إلى الغرب مباشرة، عقب أسره وإطلاق سراحه بفدية كبيرة جدّاً، دون تحقيق شيء يمحو من الأذهان ما جرى له بالمنصورة.

وحقَّق لويس التَّاسع بعض المكاسب نتيجة الخلافات بين الأيوبيِّين في الشام وبين المماليك في مصر، وتدخَّل الخليفة العباسي المستعصم بالله، فهو الذي كان يعلم باقتراب خطر المغول من بلاده، بعد الاتصالات بين التَّتار وبين البابويَّة، وأرسل نجم الدِّين القادري فأصلح بين المماليك والأيوبيين في أوَّل نيسان (أبريل) ١٢٥٣م، وأصبح لا شاغل يشغلهما عن معاودة الحرب ضد الصّليبيِّين.

بدأت الاتصالات بين التتار والبابويَّة قبيل القرن الثالث عشر، فأرسل البابا أنوسنت الرَّابع مبعوثاً من الفرانسيسكان اسمه حنادي بلانوكارِبنيس سنة ١٢٤٥م إلى كيورك خاقان التَّتار في العاصمة قراقورم[١]، والهدف تطويق المسلمين في بلاد

(١) قراقورم (قَرَه قُرُم): مدينة في منغولية على نهر أرخون، قاعدة إمبراطورية التتار.

الشَّام، خصوصاً أنَّ كيورك يميل إلى المسيحيَّة النَّسطوريَّة[١]، لأنَّ عدداً من وزرائه وكبار رجاله اعتنقوها.

وأرسل لويس التاسع مبعوثين إلى قراقورم أيضاً سنة ١٢٥٢م، يطلب ود التَّتار ومساعدتهم، على رأسهم روبروك، ففكَّر التَّتار باجتياح العراق، وحمل روبروك بشرى من التَّتار، ووعداً لاجتياح العراق وبلاد الشام[٢].

وأرسل هيثوم الأوَّل ملك أرمينية الصُّغرى أخاه سمباد إلى التَّتار سنة ١٢٤٧- ١٢٤٨م يطلب سيرهم لتطويق العالم الإسلامي، ثمَّ سار بنفسه سنة ١٢٥٤م إلى منكوخان، إمبراطور التتار الجديد، وبعد مفاوضات أعلن منكوخان رسمياً أنَّه كلَّف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق، وتحطيم الخلافة العباسية العدو اللَّدود، واستعادة الأراضي المقدَّسة للمسيحيِّين.

وقلب الدكتور جورج حداد[٣] الحقيقة، فجعل هولاكو هو الذي أرسل الرُّسل إلى أوربة، «وأرسل بعثات إلى ملوك أُوربة، وإلى البابا يقترح تحالفاً للشَّرق مع الغرب ضد المماليك، غير أن

---

(١) نِسطور (نحو ٣٨٠-٤٥١م) بطريرك القسطنطينيَّة سنة ٤٢٨م، أنكر على مريم أُم الله، فحرمه مجمع إفسس سنة ٤٣١م، أتباعه هم النَّساطرة.

(٢) الحركة الصليبية ١٠٩٩.

(٣) في كتابه (المدخل إلى تاريخ الحضارة) مطبعة الجامعة السُّورية ١٩٥٨م، ٢١٣.

أُوربة لم تظهر اهتماماً»، وينقض هذا الكلام رسل البابا (حنادي بلانو كاربنيس)، ورسل لويس التاسع (روبروك)، وسفر هيثوم الأول - وأخيه من قبله - إلى قراقورم، وينفيه عدم حاجة التَّتار القوة الناشئة الجرَّارة لبقايا الصليبيِّين المنهارين في بلاد الشام، وعدم وجود احتكاك بينهم وبين المماليك، فلا صلات حدوديَّة أو تجارية بينهما.

تحقَّق التَّحالف الصليبي - التَّتري، فغادر لويس التَّاسع عكا عائداً إلى بلاده في ٢٥ نيسان (أبريل) ١٢٥٤م، ولكن حرباً أهليَّة بين الصليبيين أنفسهم بالشَّام ازدادت اتِّساعاً وعنفاً سنة ١٢٥٦م، حينها وجد الصَّليبيُّون أنفسهم في فراغ كبير، بعد أن جدَّدوا الصُّلح مع المسلمين سنة ١٢٥٦م لمدة عشر سنوات.

انقسم الصليبيُّون إلى جبهات متعادية، جرت حروب بينها برّاً وبحراً، وانتصر - مثلاً - البنادقة في المعركة البحريَّة التي دارت بينهم وبين الجنويِّين[1] في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٢٥٨م، وهُزِم الجنويُّون بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من سفنهم، و١٧٠٠رجل، ثمَّ أتبع البنادقة انتصارهم البحري بالقيام بهجوم برِّي شامل على الجنويَّة في عكا.

(١) البندقيَّة (فينيسية) الإيطالية، على شاطئ الأدرياتيك أقصى الشَّمال، وجنوة ميناء شمال غرب إيطالية، انظر مصوَّر الحملة الصليبية السَّادسة، قبل صفحات في هذا الكتاب.

التَّتارُ والخلافة العبَّاسيّة

أرسل منكوخان عظيم التَّتار في قراقورم أخاه هولاكو وهو بوذيّ العقيدة، للاستيلاء على خراسان وفارس والشَّام ومصر، وأوصاه باحترام رأي زوجته (دوقوز خاتون) المسيحيَّة النَّسطوريَّة المخلصة لعقيدتها، لذلك يمكن القول: إنَّ غزو التَّتار للعراق وبلاد الشام اتَّخذ طابع حملة صليبية، وظهر هولاكو على أنَّه حامي حمى المسيحيين في الشرق ضد المسلمين، وطلب من هيثوم الأوَّل أن يسير بجيشه معه إلى بيت المقدس، وتخليص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين، وتسليمها للمسيحيِّين[1].

أخضع هولاكو فارس، وحاصر قلعة آلْمُوت، فاستسلم زعيم الباطنيَّة فيها، شيخ الجبل ركن الدِّين خورشاه، في كانون الأول (ديسمبر) ١٢٥٦م، وأرسل خورشاه رجلين من خاصَّته مع هولاكو لتسليمه قلاعه في الشَّام.

ودخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، بعد خيانة الوزير ابن العلقمي، الذي أطلع وسهَّل دخول التَّتار، وأعلم بضعف الخليفة العباسي المستعصم بالله، فقتلوا آخر خليفة

(١) الحركة الصليبية ١١٢١.

عباسي، وأحرقوا جامع الخليفة، وأنعم هولاكو على البطريرك النَّسطوري في بغداد بالهدايا الثَّمينة، وخصَّص أحد قصور بغداد مقرّاً له[١].

وكان لسقوط بغداد والخلافة العباسية دويٌّ هائل في أرجاء العالم الإسلامي، وأعلن عدد من الأُمراء في المنطقة خضوعهم للتَّتار، بعدما سمعوا بوحشيتهم في بغداد، حيث نفذت مذبحة رهيبة، ضحاياها ثمان مئة ألف من السكان[٢]، ثمَّ استولى التَّتار على الجزيرة، ودخلوا حلب في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٢٦٠م، فكان عدد القتلى مئة ألف من النِّساء والصِّبيان، وأحرق هيثوم الأوَّل مسجد حلب بنفسه، وأسرع الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدِّم فروض الطَّاعة لهولاكو، ثمَّ سارت جموع التَّتار ودخلت دمشق، ووصلت إلى غزَّة[٣].

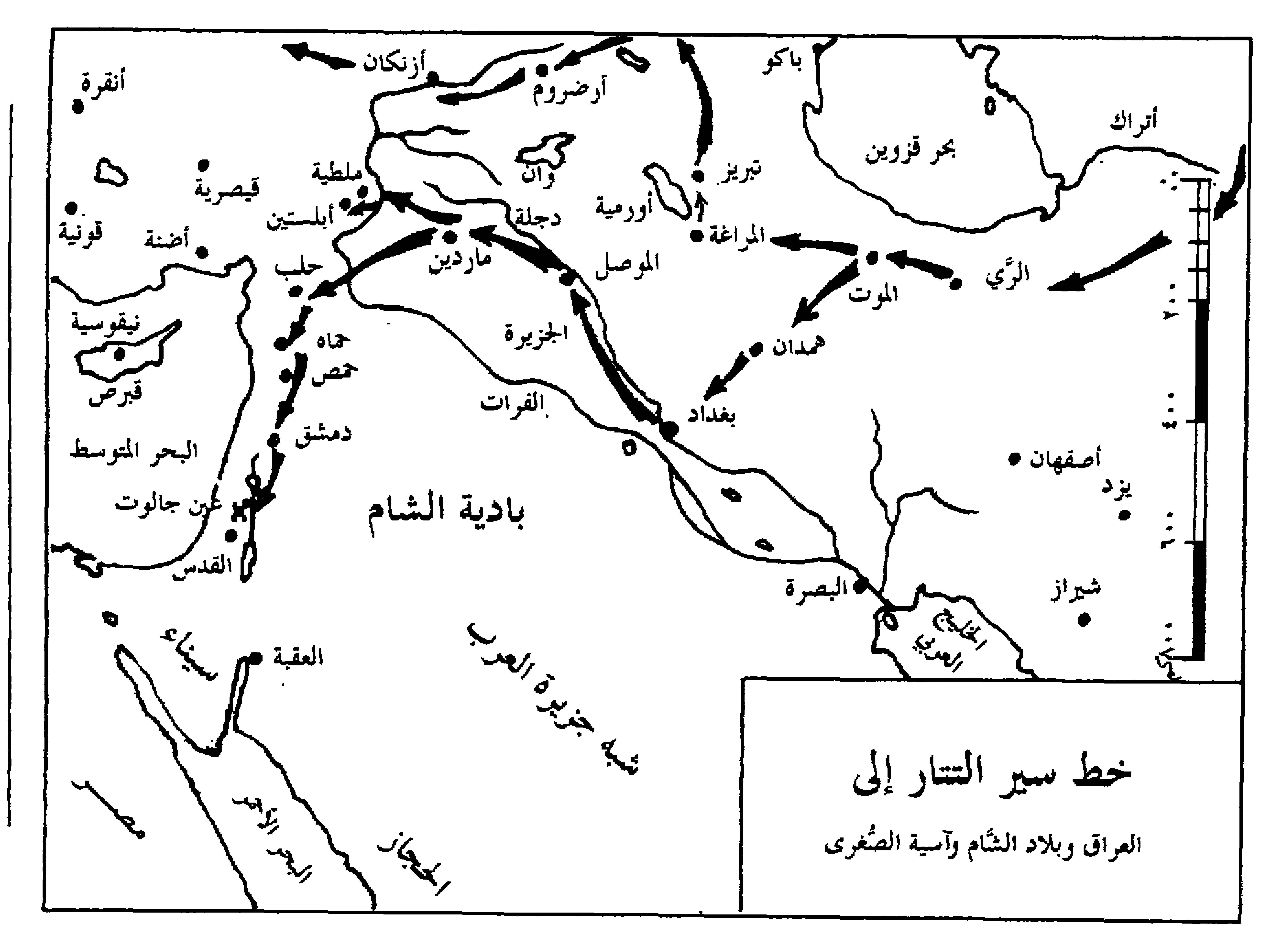
التَّتار وأحوال الصليبين في بلاد الشام

إنَّ انشغال الصليبيين بمنازعاتهم الدَّاخلية، لم يترك لهم مجالاً للخوض في ميدان سياسة المنطقة ومصيرها، وسبَّب عدم استغلال تلك الظُّروف السَّيئة التي أمسى فيها العالم الإسلامي، وبتحريض منهم.

(١) الحركة الصليبية ١١٢٩.

(٢) النجوم الزَّاهرة ٧/ ٥٠.

(٣) تفاصيل مسيرة هذه الجموع سيأتي حين الحديث عن الملك المظَّفر سيف الدين قُطز.


خط سير التتار إلى
العراق وبلاد الشّام وآسية الصُّغرى
أنقرة
أزنكان
أرضروم
باكو
أتراك
بحر قزوين
قيصرية
ملطية
قونية
أبلستين
وان
تبريز
أورمية
دجلة
المراغة
أضنة
حلب
ماردين
الموصل
الري
الموت
نيقوسية
قبرص
حماه
حمص
الجزيرة
همدان
الفرات
بغداد
دمشق
البحر المتوسط
أصفهان
يزد
عين جالوت
بادية الشام
القدس
البصرة
شيراز
الخليج العربي
سيناء
العقبة
شبه جزيرة العرب
مصر
البحر الأحمر
الحجاز
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠ كم

واستاء البنادقة في عكا من تحرُّك التَّتار، لما ترتَّب عليه من خلل اعترى طرق التِّجارة بين الشَّرق والغرب، ولاسيما أنَّ العلاقات التجارية بين البنادقة والمماليك في مصر كنت طيِّبة، وحرصوا على ألاَّ يحدث ما يفسدها.

ويبدو أنَّ الصليبين الغربيِّين وهم كاثوليك، ساءهم عطف التَّتار على المسيحيين الشرقيين وهم نساطرة، فضاقوا ذرعاً بذلك، وأخافهم من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقيَّة، حتى إنَّهم أرسلوا إلى الغرب يطلبون حملة صليبية جديدة، لا ضد المسلمين، وإنما ضد التَّتار وحلفائهم المسيحيِّين الشرقيين.

ومجمل القول أنَّ موقف الصليبيين الغربيِّين من حركة الغزو التتري لبلاد الشام، يتلخص بأنَّهم أضاعوا من أيديهم فرصة ثمينة لم يتحها لهم الزَّمان ولن يتيحها مرَّة أخرى، مضت الفرصة ولم يدركوا أهميَّة الحركة التَّترية بالنسبة إليهم، وما هي إلاَّ سنوات معدودة وسيقضي المماليك المسلمون على جميع إماراتهم ومعاقلهم القائمة في بلاد الشام.

وحينما عاد هولاكو إلى العاصمة قراقورم بسبب وفاة أخيه منكوخان، ازداد نفوذ كتبغانوين النَّسطوري، فأشبع حقده وتعصُّبه.

واستفزَّ الصليبيون المغول بدل مدِّ يد التَّحالف واستغلال

القوة الجديدة على حساب المسلمين، وجرت بينهم اشتباكات بعد أن قتل الصليبيون ابن أخي كتبغانوين، فدمَّر صيدا، وقتل أهلها، ودمَّر أسوارها، وأحرق دورها، فأرسل الصليبيُّون إلى مصر، من يطلب مساعدة المماليك ضد التَّتار، الأمر الذي مكَّن المماليك من طرد التَّتار والصَّليبيين جميعاً من بلاد الشام.

❊ ❊ ❊

الملك المظَفَّر قُطُز
بطل عين جالوت

انهار النِّظام المترنِّح للدَّولة الأيوبيَّة، أمام زحف التَّتار، لتصمد أمامه دولة المماليك الصَّاعدة، بعد أن وضعت المقاومة الإسلامية على طريقها الصحيح.

ويُعَدُّ الملك المظفَّر سيف الدِّين قُطُز بن عبد الله المُعِزِّي، نسبة إلى المعز عز الدِّين أيبك التُّركماني، السُّلطانَ الثَّالث من ملوك التُّرك بالدِّيار المصريَّة، تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور علي ابن الملك المُعزّ أيبك، في يوم السبت ١٧ ذي العقدة سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٨)[١]، وذلك بعد أن عظمت الأراجيف، بتحرُّك التَّتار نحو البلاد الشاميَّة، وقطعهم نهر الفرات، مع غارات متتالية على مناطق وقرى حلب، ووصل إلى قطز بسبب ذلك الصاحب كمال الدين عمر بن العديم، رسولاً من الملك النَّاصر صلاح الدِّين يوسف صاحب حلب والشَّام[٢]، يطلب

---

(١) لترجمة الملك المظفر قُطُز: النُّجوم الزَّاهرة ٧/ ٧٢.

(٢) النَّاصر صلاح الدِّين يوسف ٦٣٤-٦٥٨هـ/١٢٣٦-١٢٦٠م من أيوبيَّة دمشق، وهو غير النَّاصر صلاح الدِّين يوسف بن أيُّوب بن شاذي الأيوبي ٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م.

منه النَّجدة على قتال التَّتار، فأنزله بقلعة الكَبْش بجوار الجامع الطُّولوني، وجمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يقرِّره بشأن أمر التَّتار، وأن يُؤخذ من النَّاس ما يستعان به على الجهاد، فحضروا في دار السَّلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشَّيخ عز الدِّين بن عبد السلام، والقاضي بدر الدِّين السِّنجاري قاضي الدِّيار المصرية، وغيرهما من العلماء، وجلس الملك المنصور علي في صدر المجلس، وأفاضوا في الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله العز بن عبد السَّلام، وخلاصة ما قال: إنَّه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرَّعيَّة ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألاَّ يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص[1] المذهَّبة، والآلات النَّفيسة، ويقتصر كلُّ الجند على مركوبه وسلاحه، ويتساووا هم والعامَّة، وأمَّا أخذ الأموال من العامَّة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا، وانفضَّ المجلس على ذلك.

ولم يتكلَّم السُّلطان بكلمة في المجلس، لعدم معرفته بالأمور، ولصغر سِنِّه، فلهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قُطُز، حتَّى يقوم بهذا الأمر الخطير، وتَّم ذلك بعد أيام، وقبض قطز على الملك المنصور علي، وأوضح لكمال الدِّين بن العديم وغيره بأنه صبيٌّ

(١) كان من عادة السُّلطان أنَّه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرَّق حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدَّمين، (صبح الأعشى ٤/ ٥٢-٥٥).

لا يحسن تدبير المُلْك، وفي مثل هذا الموقف الصَّعب، لابدَّ أن يقوم بأمر المُلك رجل شهم، يطيعه النَّاس، وينتصب للجهاد.

وكان الأميران: علم الدِّين سَنْجَر الغَتْمي المعظَّمي، وسيف الدين بَهادُر حين جرى هذا الأمر غائبين في الصَّعيد، فاغتنم قُطُز لغيبتهما الفرصة، فلما حضرا قبض عليهما واعتقلهما، وتسلطن، وركب بشعار الملك، وجلس على كرسي السَّلطنة، وتم أمره.

ولمَّا تَمَّ ذلك، تقدَّم قطز إلى برهان الدِّين الخَضِر، برهان الدِّين السِّنجاري أبو محمَّد الخضر بن الحسن بن علي، قاضي القضاة، أن يتوجَّه في جواب رسالة الملك النَّاصر صلاح الدِّين يوسف صاحب الشَّام، مع الصَّاحب كمال الدِّين بن العديم. يعده بالنَّجدة وإنفاذ العساكر إليه، فتوجَّها إلى دمشق، وأدَّيا الرسالة، ولم يزل البرهان بدمشق إلى أن رحل الملك النَّاصر من دمشق إلى جهة الدِّيار المصرية هارباً من التَّتار.

وكان النَّاصر لمَّا تحقَّق من حركة التَّتار إلى جنوبي بلاد الشام، رحل إلى برزة شمال شرقي دمشق، ونزل بها بعساكره، واجتمع إليه أمم عظيمة من العرب والعجم المتطوِّعة، فلم يعجب النَّاصر حاله لما رأى من تخاذل عسكره، وعلم أنَّه إذا لاقى التَّتار، لم يثبت عسكره لهم لكثرتهم ولقوَّتهم، فإنَّ هولاكو في خلق لا

يحصيهم إلاَّ الله تعالى من التتار والكرج والعجم وغيرهم، ولم يكن من حين قدومهم على بلاد المسلمين من سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، إلى هذه السَّنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م يلقاهم عسكر إلاَّ هزموه، سوى وقائع كانت بينهم وبين جلال الدِّين بن خوارزمشاه[١]، انتصف جلال الدِّين في بعضها، ثمَّ سحقوه على باب آمد[٢] وبدَّدوا جمعه، وأعقب ذلك موت جلال الدِّين بالقرب من ميَّافَارِقين[٣].

وأمَّا هولاكو فإنَّه في جمادى الأُولى ٦٥٧هـ/١٢٥٨م نزل حرَّان واستولى عليها، ومَلَك الجزيرة الفراتيَّة، ثمَّ سيَّر ولده أشموط إلى الشَّام، وأمره أن يجتاز الفرات وأخذ البلاد الشَّاميَّة، وسيَّره في جمع كثيف من التَّتار، فوصل أشموط إلى نهر الجوز[٤]، وتل باشر[٥]، ووصل الخبر إلى حلب من البيرة[٦]. بذلك، وكان

(١) النُّجوم الزَّاهرة، أحداث سنة ٦٢٨هـ.

(٢) آمِدُ: بلد قديم على نهر دجلة شمالي الجزيرة (معجم البلدان ١/٥٦).

(٣) مَيَّافارقين: أشهر مدن ديار بكر (معجم البلدان ٥/٢٣٥).

(٤) نهر الجوز: ناحية ذات قرى وبساتين ومياه، بين حلب والبيرة التي على الفرات، (معجم البلدان ٢/١٨٣).

(٥) تلُّ باشِر: قلعة حصينة، وكورة واسعة في شمالي حلب (معجم البلدان ٢/٤٠).

(٦) البِيرَة: بلد قرب سميساط، بين حلب والثُّغور الرُّوميَّة (معجم البلدان ١/٥٢٦).

نائب السُّلطان صلاح الدِّين يوسف بحلب ابنه الملك المعظَّم توران شاه، فجعل النَّاس بين يدي التَّتار إلى جهة دمشق، وعظم الخطب، واجتمع النَّاس من كلِّ فجٍّ عند الملك النَّاصر بدمشق.

واحترز الملك المعظَّم توران شاه ابن الملك النَّاصر بحلب غاية الاحتراز، وكذلك جميع نوَّاب البلاد الحلبيَّة، وصارت حلب في غاية الحصانة بأسوارها المحكمة البناء، وكثرة الآلات، فلما كان العشر الأخير من ذي الحجَّة سنة ٦٥٧هـ قصد التَّتار حلب، ونزلوا على قرية يقال لها المِسْلِمْيَة، وسيروا جماعة من عسكرهم أشرفوا على المدينة، فخرج عسكر حلب ومعهم خلق عظيم من عامَّة النَّاس، وأشرفوا على التَّتار وهم نازلون على هذه الأماكن، فلمَّا تحقَّق المسلمون من كثرتهم، كرُّوا راجعين إلى المدينة، فقرَّر الملك المعظم بعد ذلك ألاَّ يخرج أحد من المدينة.

ولما كان غد هذا اليوم، رحلت التَّتار من منازلهم طالبين مدينة حلب، واجتمع عسكر المسلمين وأخذوا في المشورة فيما يعتمدونه، فأشار عليهم الملك المعظَّم أنَّهم لا يخرجون أصلاً لكثرة التَّتار ولقوَّتهم، وضعف المسلمين عن لقائهم، فلم يوافقه جماعة من العسكر، وأبوا إلاَّ الخروج إلى ظاهر البلد، كي لا يطمع العدو فيهم، فخرج العسكر إلى ظاهر حلب، وخرج معهم متطوِّعون من عامَّة النَّاس، واجتمعوا كلُّهم بجبل

(بانقُوسا) في ظاهر حلب، ووصل جمعُ التَّتار إلى أسفل الجبل، فنزل إليهم جماعة من العسكر ليقاتلوهم، فلمَّا رآهم التَّتار اندفعوا بين أيديهم مكراً منهم وخديعة، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النَّهار، ثم كرَّ التَّتار عليهم، فولُّوا منهزمين إلى جهة البلد - حلب - والتَّتار في أثرهم، فلمَّا حاذوا جبل بانقوسا وعليه بقيَّة عسكر المسلمين والمتطوِّعة، اندفعوا كلُّهم نحو البلد والتَّتار في أعقابهم، فقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً من الجند والمتطوِّعة، وممَّن استشهد في ذلك اليوم، الأمير علم الدِّين زُرَيق العزيزي، وكان من أعيان الأمراء، ونازل التَّتار المدينة في ذلك اليوم إلى آخره، ثمَّ رحلوا طالبين أعزاز[1]، فتسلَّموها بالأمان.

ثمَّ عاد التَّتار إلى حلب في ثاني صفر ٦٥٨هـ، وحاصروها حتَّى استولوا عليها في تاسع صفر بالأمان، فلمَّا ملكوها، غدروا بأهلها، وقتلوا ونهبوا وسبوا على عادتهم، وبلغ الملك النَّاصر يوسف أخذ حلب في منتصف صفر، فخرج النَّاصر من دمشق بأمرائه جنوباً، وكان رسل التَّتار بقرية حرستا[2]، فأُدخلوا دمشق ليلة الإثنين ١٧ صفر، وقرئ بعد صلاة الظُّهر مرسومٌ جاء من عند ملك التَّتار يتضمَّن الأمان لأهل دمشق وما حولها، وشرع وجهاء المدينة في تدبير أمرهم، ثمَّ وصل التَّتار إلى دمشق

---

(١) أعزاز: بلدة شمال حلب.

(٢) حرستا: شرق دمشق، على بعد بضعة كيلومترات، تكاد تتَّصل بها اليوم.

في ١٧ ربيع الأول، فلقيهم أعيان البلد أحسن ملتقى، وقرئ ما معهم من المرسوم المتضمِّن الأمان، ووصلت عساكرهم من جهة الغوطة، مارِّين من وراء الضِّياع إلى جهة الكسوة[١].

وفي ٢٦ ربيع الأوَّل جاء منشور من هولاكو للقاضي كمال الدِّين عمر بن بُنْدار التفليسي بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام إلى الموصل وميافارقين.. وغير ذلك، وكان القاضي قبله صدر الدِّين أحمد بن سَنِيِّ الدولة[٢].

وتوجَّه الملك النَّاصر نحو الدِّيار المصريَّة، ونزل العريش، ثمَّ قَطْيا[٣]، بعد أن تفرَّق عسكره عنه، وتوجَّه معظم عسكره إلى مصر قبله مع الأثقال، فلمَّا وصل النَّاصر - الذي ترك دمشق لقدرها ناجياً بنفسه وحاشيته - عاد منها إلى جهة الشَّام لشيء بلغه عن الملك المظفَّر قُطُز صاحب مصر، ونزل بوادي موسى[٤]، ثمَّ نزل بركة زَيْزَاء[٥]، ففاجأة التَّتار بها وهو في

---

(١) الكسوة: بلدة جنوب دمشق.

(٢) صدر الدِّين أحمد بن شمس الدِّين أبو البركات يحيى بن هبة الله بن سَنِي الدَّولة ٦٥٨هـ.

(٣) قَطْيا: قرب الفَرَما على طريق الشام - مصر.

(٤) وادي موسى: جنوبي الأُردن اليوم، عند معان وأذرح والبتراء.

(٥) زَيْزاء: من قرى البلقاء- في الأُردن - على طريق الحج، يقام بها سوق للحجَّاج، وفيها بركة كبيرة.

خواصّه وقليل من مماليكه، فاستأمن النَّاصر من التَّتار وتوجَّه إليهم، فلما وصل إليهم احتفظوا به، وبقي معهم في ذلٍّ وهوان إلى أن قُتِل.

وأمَّا التَّتار فإنَّه بلغت غارتهم إلى الخليل وغزَّة، فقتلوا الرِّجال، وسبوا النِّساء والصّبيان، واستاقوا من الأسرى، والأبقار والأغنام والمواشي شيئاً كثيراً، كل ذلك والملك المظفَّر قُطُز سلطان مصر يتهيّأ للقاء التَّتار، فلمَّا اجتمعت العساكر الإسلامية بالدِّيار المصريَّة ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفَّر قُطُز الخروج لقتالهم، بعد أن كانت القلوب قد أيست من النُّصرة على التَّتار، وأجمع كبار القوم على حماية مصر فقط، لكثرة عدد التَّتار واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، وأنَّهم ما قصدوا إقليماً إلاَّ فتحوه، ولا جيشاً إلاَّ هزموه، ولم يبقَ خارجاً عن حكمهم إلاَّ مصر والحجاز واليمن، وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى المغرب العربي، وهرب جماعة من النَّاس إلى الحجاز، وإلى اليمن، والباقي في وجل عظيم، وخوف شديد يتوقَّعون برعب وفزع دخول التَّتار، وأخذ البلاد.

وصمَّم الملك المظفَّر قُطُز على لقاء التَّتار، وهو الذي شهد معارك كثيرة مع الأيُّوبيِّين، ممَّا أكسبه خبرة حربيَّة كبيرة، تشهد له مواقفه القادمة في عين جالوت، فهو فارس قويُّ البنية، مع روح قياديَّة، وهو من الحاذقين في استخدام الرُّمح، له طريقة عُرِف

بها، قائد متميِّز من الطِّراز الأوَّل، مع عقيدة سليمة، وإيمان راسخ، قوَّى عزيمة الجهاد في قلبه، فاستهان بالموت، مع وثوق بالنَّصر.

ناهيك عن حقده على التَّتار، الذين أذاقوا خاله خوارزم شاه ومن معه شرّاً، واحتلُّوا بلادهم وساموهم سوء العذاب.

وجاءت رسل هولاكو إلى مصر، لتعلم قُطُز أنَّه لم يبقَ أمام التَّتار إلاَّ مصر والحجاز واليمن، فخرج في جموعه الشَّاميَّة والمصريَّة في شهر رمضان، الذين شكَّلوا بنية الجيش المملوكي، الذي كان خليطاً من الأتراك والشَّراكسة والرُّوم والعرب، جمع الإسلام بين قلوبهم وصفوفهم، فالعقيدة واحدة، والهدف واحد، ألا وهو وقف الزّحف التَّتاري.

وصحب قُطُزَ الملك المنصور صاحب حماة، وكان الأتابك فارس الدِّين أقطاي بيده كلُّ أمور الجيش، كلُّها مفوَّضة إليه.

وأبلغ الملك المظفر قُطُز الملك منصور صاحب حماة - وهو بالصَّالحيَّة[1] - ألاَّ تحتفل أو تنشغل في مدِّ سماط[2]، بل كلُّ

---

(١) الصَّالحيَّة: بلدة شرق شمالي الدَّلتا، شمال شرق بلبيس والقاهرة.

(٢) السّماط: ما يمدُّ ليوضع عليه الطَّعام في المآدب ونحوها، (المعجم الوسيط: سمط).

واحد من أصحابك يفطر على قطعة لحم في صَوْلَقِة[1]، وسافر الملك المظفَّر قُطُز من الصَّالحيَّة، ووصل غزّة، والقلوب وجلة.

أمَّا كُتبُغانُوِين[2] مقدَّم التَّتار على عسكر هولاكو، لمَّا بلغه خروج الملك المظفَّر قُطُز كان بالبقاع، ومعه قوَّة عسكرية لا يستهان بها، حيث النِّظام الصَّارم، والتَّدريب القتالي العالي، فهو يقاتل بجد وعزيمة متَّكئاً على سلسلة من الانتصارات المتتالية.

استدعى كتبغانوين الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص، وقاضي القضاة محيي الدِّين محمد بن يحيى المعروف بابن الزَّكي، واستشارهم في الأمر، كيف يعمل؟ فمنهم من أشار بعدم الملتقى، ومراوغة الملك المظفَّر قُطُز دون خوض معركة حاسمة، ريثما يصل مدد من هولاكو ليتقوى به على ملتقى الجيش المملوكي، ومنهم من أشار بغير ذلك، وتفرَّقت الآراء، ورجَّح كتبغانوين رأي من قال بلقاء قُطُز، فجمع من في الشام من التتار، سار إلى الغور، وارتحل الملك المظفَّر قُطُز من غزَّة، ونزل الغور بعين جالوت[3]، حيث جموع التَّتار.

---

(١) الصَّولق: مخلاة من جلد يضعها الشَّخص في حزامه من الجهة اليمنى، والجمع صوالق.

(٢) كَتْبُغانُوِين: معناه: أمير عشرة آلاف، وكلُّ اسم من أسماء ملوكهم في آخره (نُوين) معناه رأس عشرة آلاف، (صبح الأعشى ٦/ ٣٣).

(٣) عين جالوت: سهل بين بيسان ونابلس في فلسطين، قرب مجرى نهر عين جالوت، الذي كان يصبُّ في نهر الأردن.

البُشْرى يَقينُ قُطز

جاء في النُّجوم الزَّاهرة ٧/ ٤٨ : كان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التُّركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التَّدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التَّتار، وروي عن شمس الدين الجزري[١]: كان قُطُز في رقِّ ابن الزَّعيم بدمشق في القصَّاعين[٢]، فضربه أُستاذه فبكى، ولم يأكل شيئاً يومه، ثمَّ ركب أُستاذه وغادر لعمله، وأمر الفرَّاش أن يترضّاه ويطعمه، قال الحاج علي الفراش: فجئته وقلت: ماهذا البكاء من لَطْشة؟ فقال: إنَّما بكائي من لعنة أبي وجدّي وهم خيرٌ منه، فقلت: من أبوك؟ واحد كافر! فقال: والله ما أنا إلاَّ مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود[٣] ابن أُخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكَّتُّه وترضَّيتُه، وتنقَّلت به الأحوال إلى أن تملَّك مصر.

قال تاج الدِّين أحمد بن سعيد بن محمد الصَّاحب، تاج الدِّين ابن الأثير الحلبي الموقِّع: والله هذا قُطُز خشداشي[٤]، كنت أنا

---

(١) شمس الدِّين محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز بن الجزري.

(٢) القصَّاع، من أحياء شرق دمشق، آخر سوق مدحت باشا اليوم.

(٣) في عقد الجمان: محمود بن مودود.

(٤) خشداش: فارسي معرَّب، الزَّميل في الخدمة، ومنها اشتقَّت الخشداشيَّة لقب الأمراء المماليك الذين نشؤوا عند سيد واحد فنمت بينهم رابطة الزَّمالة، التي كان لها أثر هام على الإطار التاريخي في العهد المملوكي.

وإيَّاه عند ركن الدِّين الهيجاوي من أُمراء مصر ونحن صبيان، صفعته، فقال لي: وألك علّة! إيش يلزم لك إلاَّ إمرة خمسين فارساً؟ أنا والله أُعطيك، قلت: ويلك! كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الدِّيار المصرية، وأكسر التتار، وأُعطيك الذي طلبت، قلت: ويلك أنت مجنون! أنت تملك الدِّيار المصريَّة؟ قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: أنت تملك الدِّيار المصرية وتكسر التَّتار، وقول النبي ﷺ حقٌّ لاشكَّ فيه، قال: فسكتُّ وكنت أعرف منه الصِّدق في حديثه وعدم الكذب، قال تاج الدين: فلما قال لي هذا، قلت له: قد وردت الأخبار بأنَّه تسلطن، قال لي: والله وهو يكسر التَّتار.

قال تاج الدِّين: فرأيت حسام الدِّين البركة خاني - القائل ذلك - بالدِّيار المصرية بعد كسر التَّتار فسلَّم عليَّ، وقال: يا مولاي تاج الدين، تذكُرُ ما قلتُ لك في الوقت الفلاني؟ قلت: نعم، قال: والله حالما عاد الملك الناصر من قَطْيا دخلت الديار المصرية أعطاني إمرة خمسين فارساً كما قال، لا زائد على ذلك.

❊ ❊ ❊

الملكُ الظَّاهر ركن الدِّين
بيبرس

بيبرس رئيس أركان الجيش المملوكي وقائد الطَّليعة في عين جالوت.

ملك البلاد في مصر وبلاد الشَّام بعد قتله للملك المظفَّر قُطُز.

وهو من دون شك، ظهرت عليه أمارات النَّجابة والفطنة في سنٍّ مبكِّرة من حياته.

فهم بعد تولِّية السَّلطنة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م تمام الفهم أبعاد الصِّراع بينه وبين الصَّليبيين، فوضع خطَّته في حربهم، على أساس مواجهتهم عالميّاً، مستفيداً من التغيُّرات التي طرأت على العلاقات الدَّوليَّة، خصوصاً وقد شكَّل نهر الفرات الحدَّ الفاصل بين دولة تتار فارس، ودولة المماليك.

وعبرت القوات الإسلاميَّة نهر الفرات، وأنزلت بالتَّتار هزيمة على الأراضي التي يسيطرون عليها، وانتصر على جيش تتري ضخم قرب أبلستين - غرب الفرات - يوم الجمعة ١٠ ذي القعدة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، فأعلن السَّلاجقة ولاءهم لبيبرس.

وراسل بيبرس بركة خان الذي اعتنق الإسلام، وكانت عاصمته سراي (سراتوف) على نهر الفولغا وحضَّه على محاربة هولاكو، وإقامة تحالف معه، وتوثيق العلاقات الودِّيَّة بينهما في مواجهة تتار فارس.

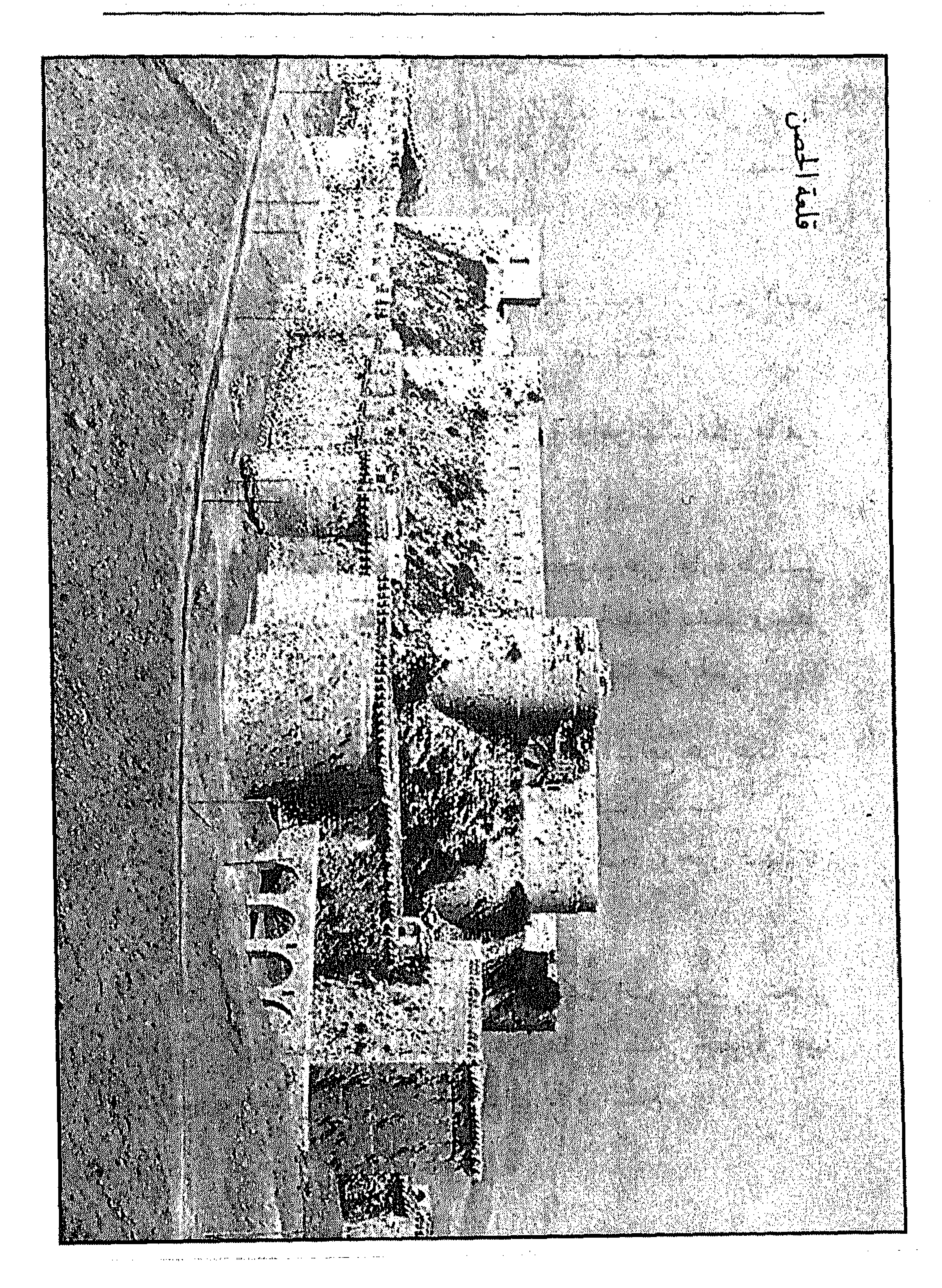
واستطاع بيبرس توجيه ضربة قاسمة لهيثوم الأوَّل، الذي سعى ورحَّب بالغزو التَّتري، لم تقم له بعد قائمة.

وأقام علاقات ودِّيَّة مع ملوك أوربة وأمرائها، مثل مانفرد ملك صقليَّة ابن فردريك الثاني.

أمَّا في بلاد الشام، فقد بدأ بيبرس هجومه على إمارة طرابلس عام ٦٦٩هـ، وسقط حصن الأكراد (قلعة الحصن) بيده، وسيطر سيطرة كاملة على أهم الطُّرق المؤدِّية إلى مدينة طرابلس.

ورجحت كفة بيبرس حينما هزم الجيش المدافع عن عكا سنة ٦٦١هـ/ ٤ نيسان (أبريل) ١٢٦٢م. وحرَّر قيسارية سنة ٦٦٣هـ/ ٤ أذار (مارس) ١٢٦٥م، وحيفا وأرسوف، وحرَّر صفد في شوال ٦٦٤هـ/ تموز (يوليو) ١٢٦٦م.

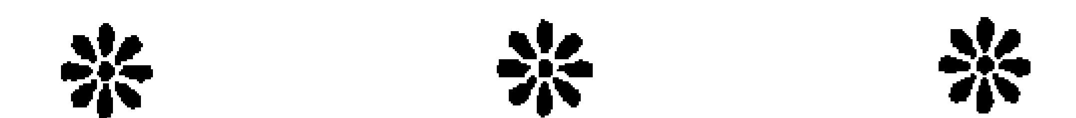
وتُعَدُّ سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م قمَّة انتصارات بيبرس بتحرير أنطاكية، ووصف رانسيمان تحريرها: لطمة خطيرة لهيبة الصليبيين، عجَّل بانهيارهم في شمال بلاد الشَّام.



قلعة الحصن

ولم يبق تحت سيطرة الصليبيين سوى شريط ساحلي ضيّق، شماله إمارة طرابلس، وجنوبه إمارة عكا.

وفي سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م وصلت عكا حملة صليبيّة إنكليزية يقودها الأمير إدوارد ولي عهد إنكلترة، ولمَّا أيقن إدوارد عجزه عن تحقيق شيء، وتحدّي الجبهة الإسلامية، وقَّع هدنة مع بيبرس سنة ٦٧٠هـ، مدَّتها عشر سنوات وعشر شهور وعشرة أيام، وبسبب خرق الصليبيِّين لبنود الصُّلح، زحفت القوَّات الإسلامية على يافا وحرَّرتها، كما حرَّرت حصن الشُّقيف(شقيف أرنون).



عَيْنُ جَالُوت

٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/٣ أيلول (سبتمبر) ١٢٦٠م
أوّل هزيمة للتّتار، وأوّل توقُّف لهم

التقى جيش المسلمين بقيادة قُطُز، ومعه قرابة ٥٠ ألفاً من المجاهدين، بينهم عشرة آلاف فارس، بجيش التّتار بقيادة كتبغانوين ومعه عشرون ألف مقاتل. في عين جالوت.

ينبع نهر جالوت في مرج ابن عامر[١]، من جنوب شرق العفُّولة بالقرب من قرية زرعين، على ارتفاع ٣٦,٥م عن سطح البحر، ليصب بعد مسيرة ١٧,٥كم في نهر الأُردن (نهر الشَّريعة)، على انخفاض ١١٥,٥ م عن مستوى سطح البحر.

كان كتبغانوين عظيماً عند التّتار، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً، خبيراً بالحروب وافتتاح الحصون، والاستيلاء على الممالك، فهو الذي فتح معظم بلاد العجم والعراق، وكان هولاكو يثق به ولا يخالفه

---

(١) مرج ابن عامر طوله ٤٠ كم شرق غرب، بعرض ٢٠ كم شمال جنوب، وارتفاعه عن مستوى سطح البحر ما بين ١٥ و٥٠م.

فيما يشير إليه، ويأخذ برأيه، ويحكى عنه عجائب في حروبه، ولكن كتبغانوين على الرَّغم من هذا الماضي المجيد، لم يقدِّر الموقف في لقائه بقُطُز في عين جالوت.

قاد القلب بيبرس، وهو يشكِّل القوَّة الضَّاربة الرَّئيسيَّة، ونظَّم الميمنة والميسرة وهيَّأهما للالتفاف والإحاطة في المواقع التي لا يتوقَّعها التَّتار، مع الكمائن المدرَّبة التي ستفاجئ التَّتار في الوقت المناسب، حينما تضعف قواهم من القتال وتنهك.

مع موسيقا عسكريَّة ذات ضجيج وصخب، ترافق الجيش، تبعث الحميَّة والحماس في جيش المسلمين، ولها دور كبير في خفض الرُّوح المعنويَّة عند العدو في أثناء القتال.

وكانت راية الظَّاهر بيبرس - قائد الطليعة، ورئيس أركان الجيش المملوكي - عليها صورة أسد، فهي تدلُّ على بطولته وشجاعته.

بدأت المعركة بقتال شديد من الطَّرفين، لم يُرَ مثله، حتَّى قُتِل من الطَّرفين جماعة كثيرة، وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة، فحمل الملك المظفَّر قُطُز بنفسه في طائفة من عساكره، وهو يهتف: واإسلاماه، وأردف الميسرة حتى عادت إلى مواقعها، واقتحم قُطُز القتال وباشره بنفسه، وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً.

وقُتِل جواد قُطُز يوم عين جالوت، ولم يصادف أحد الأوشاقيَّة[١]، فبقي راجلاً، فرآه بعض الأُمراء الشُّجعان، فترجَّل وقدَّم له حصانه، فامتنع المظفر عن ركوبه، وقال له: ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت! ثمَّ تلاحقت الأوشاقيَّة إليه[٢].

ولام المظفَّر بعضُ خواصِّه على عدم ركوبه، فقد يصادفه فارس تتري وهو راجل فيقتله، وممَّا قالوه له: «كنت رحت وراح الإسلام»[٣]، فقال: أمَّا أنا فكنت رحت إلى الجنَّة إن شاء الله تعالى، وأمَّا الإسلام فما كان الله ليُضيعه، فقد مات الملك الصَّالح نجم الدين أيُّوب، وقُتِل بعده ابنه الملك المعظَّم توران شاه، وقُتِل الأمير فخر الدِّين ابن الشَّيخ مقدَّم العساكر يوم ذاك، ونصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره[٤]..

وبعد صبر وجلد كلا الفريقين، والمظفَّر يشجِّع المسلمين ويحسِّن إليهم الشَّهادة، فاجأت الكمائن التَّتار، انطلقت من مخابئها في قمة الرَّاحة، وذروة الاندفاع لتحقيق النَّصر أو نيل

---

(١) الأوشاقي: لقب موظَّف من العصر المملوكي، له النظر والإشراف على خيل السُّلطان.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٨٥، أحداث سنة ٦٥٧هـ.

(٣) النُّجوم الزَّاهرة ٧/ ٨٦.

(٤) يعني فترة أخذ الصَّليبيين دمياط في الحملة الصليبية السَّابعة ١٢٤٩م.

الشهادة، فأحاطت بجند التَّتار، وقتلت معظم أعيانهم، وأُصيب قائدهم كتبغانوين، الذي لما عَظُم الخطب باشر القتال بنفسه، فحمل عليه وقتله الأمير جمال الدِّين آقوش الشَّمسي، والتجأت طائفة من جند التَّتار إلى تلٍّ مجاور لمكان الموقعة، فأحدقت بهم جند المسلمين، وصابروهم على القتال حتى أفنوهم قتلاً، ونجا من نجا هرباً، فتبعهم الأمير ركن الدِّين بيبرس البندقداري في جماعة من الشُّجعان إلى أطراف البلاد، وتجرّأ أهل البلاد والضِّياع على التتار وآثارهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً.

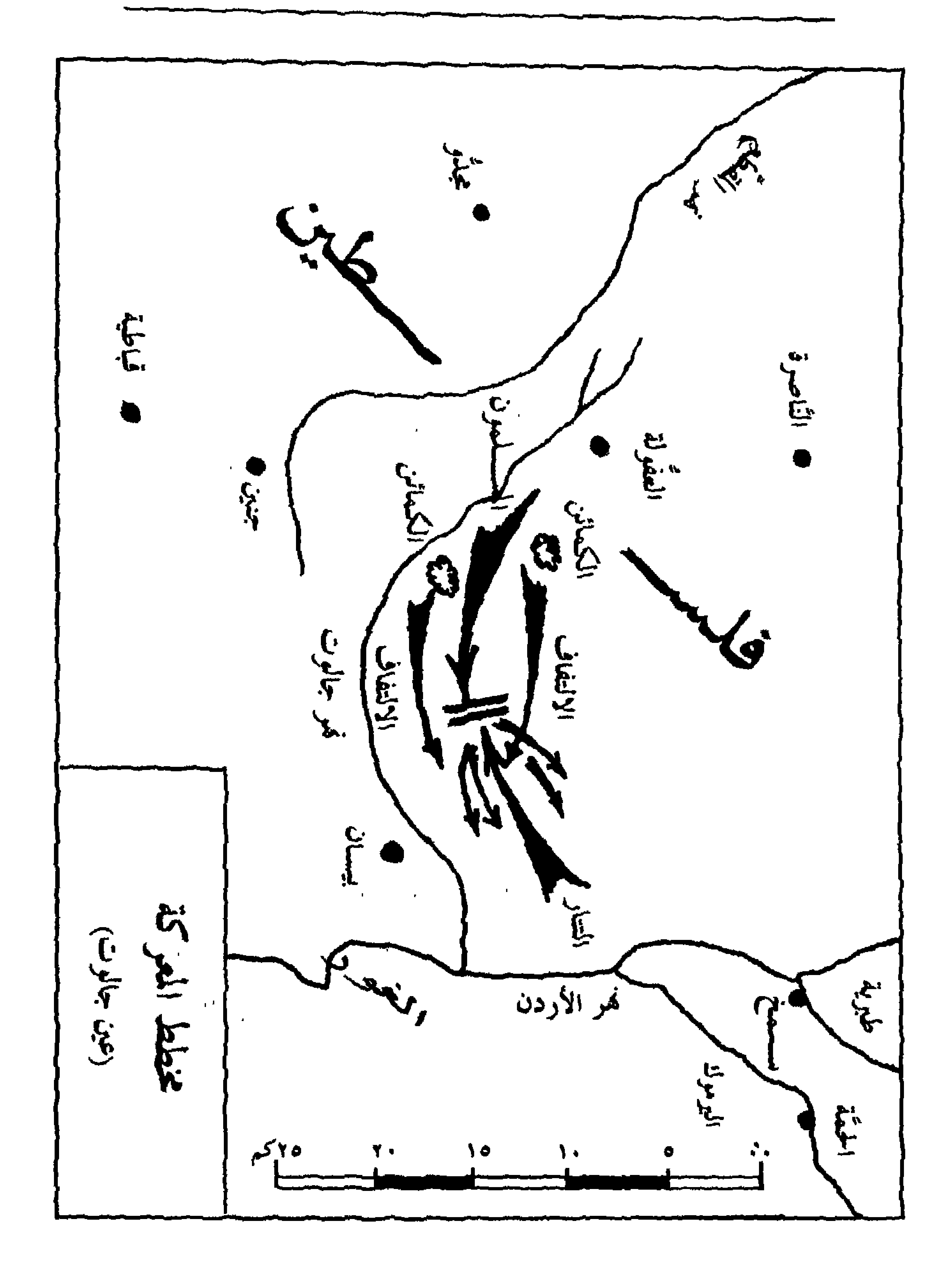
عوامل النصر وأسبابه

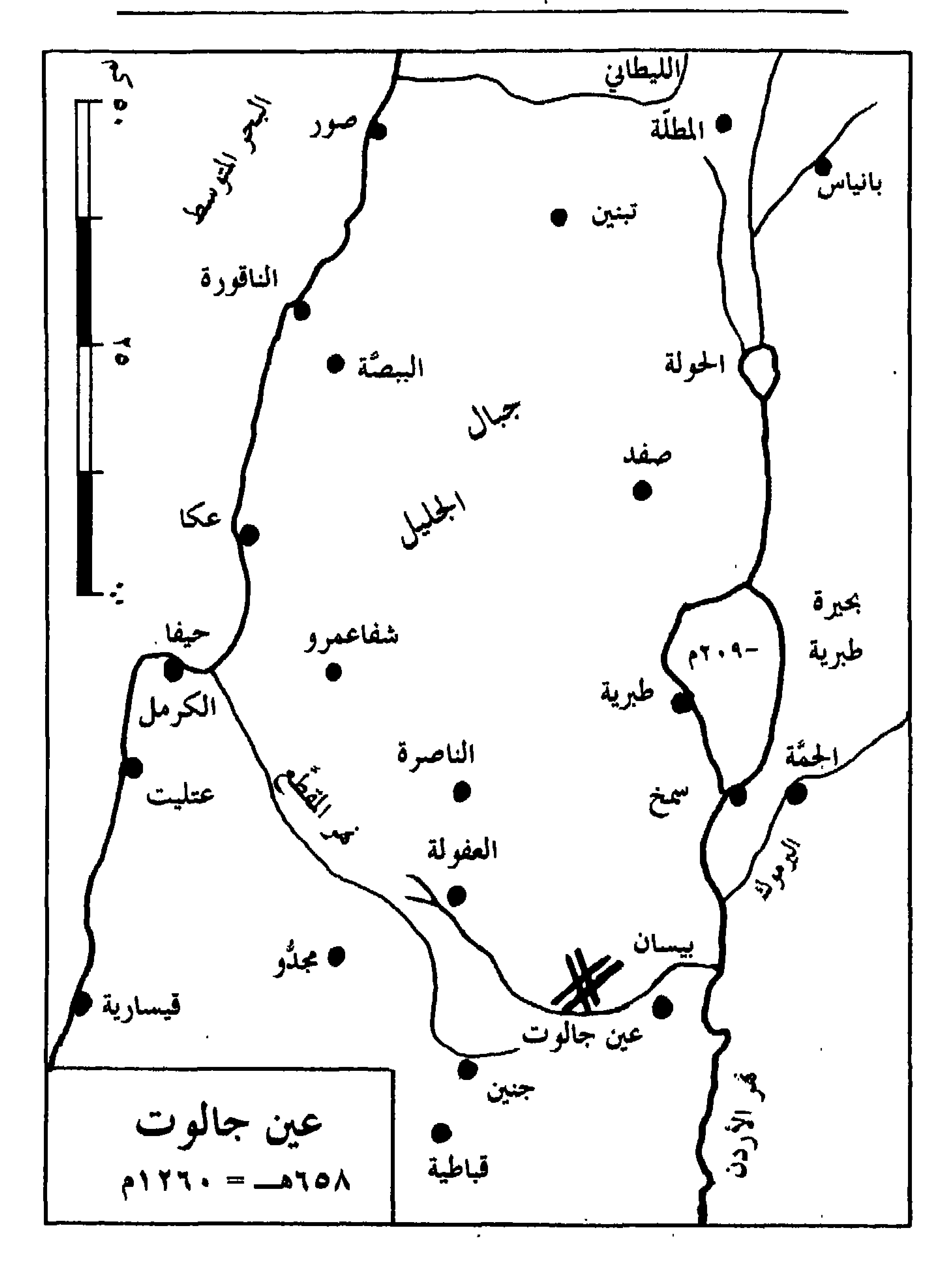
لابدَّ لكلِّ نصر حاسم فاصل من عوامل هيَّأت له، وأسباب مهَّدت لتحقيقه، ولا يمكن لمثل هذه الأحداث المصيريَّة أن تتحقَّق من فراغ، فعين جالوت معركة حاسمة في تاريخ المنطقة كلِّها، فهي أول هزيمة للتَّتار، وأوَّل توقُّف لهم، تبعه انحسار وتحوُّل.

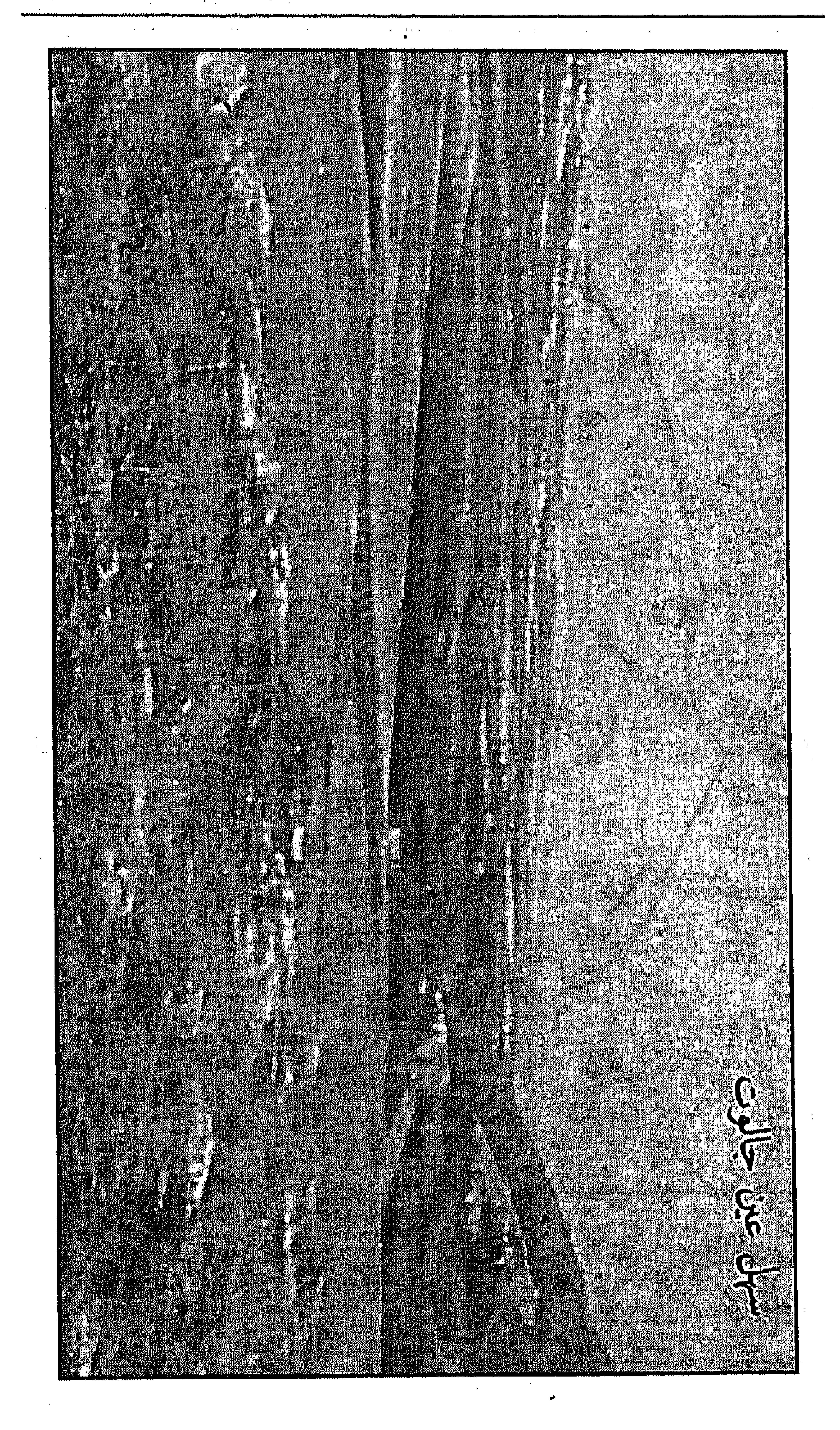
ويمكن إرجاع عوامل النَّصر وأسبابه في عين جالوت إلى[1]:

١- زيادة حجم الجيش المملوكي، وتفوُّقه على خصمه من حيث العَدَد.

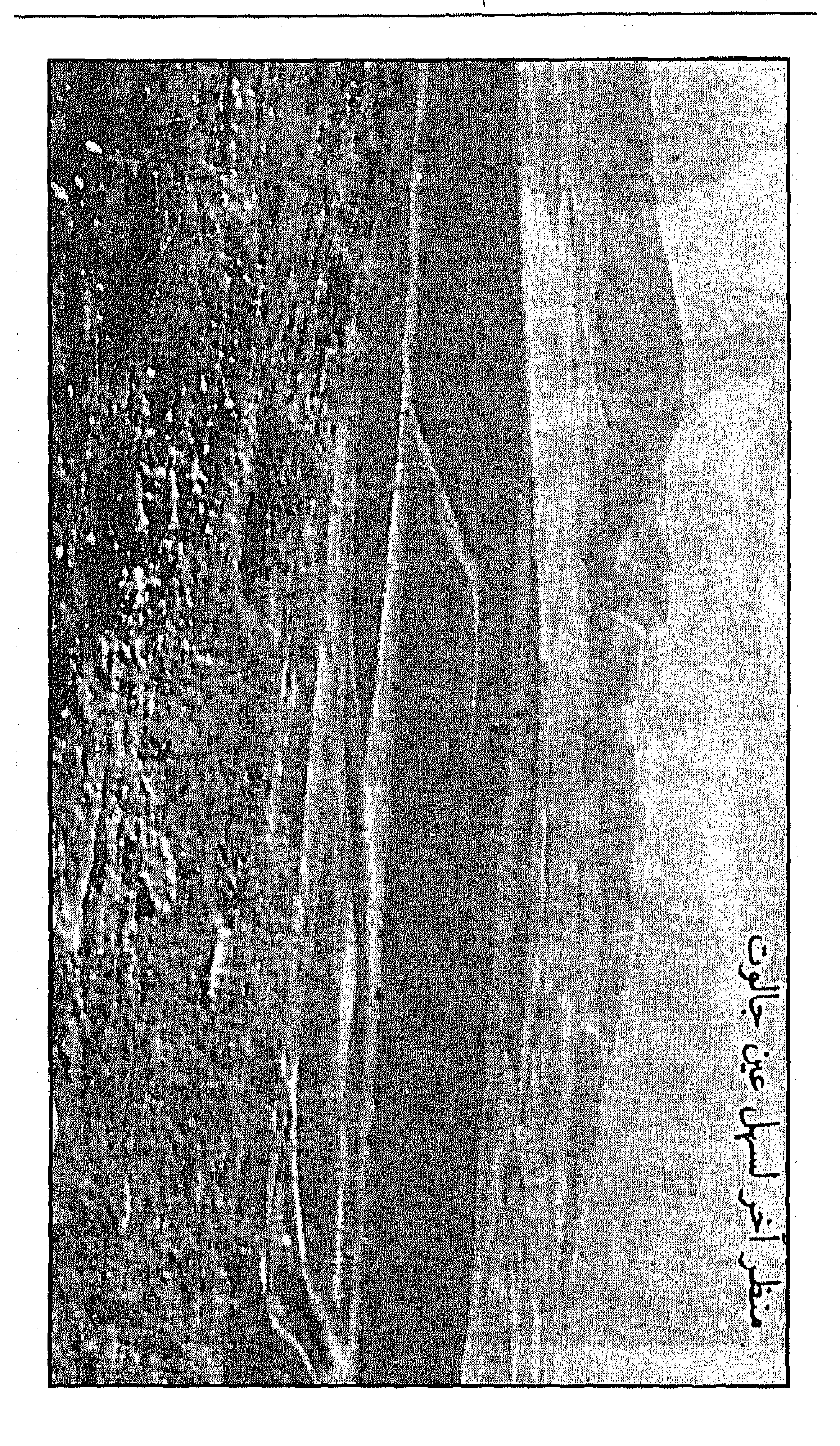
(١) انظر عين جالوت للدكتور محمد ضاهر وتر.


مخطط المعركة
(عين جالوت)
فلسطين
الناصرة
العفولة
الكمائن
الكمائن
الالتفاف
الالتفاف
التتار
نهر جالوت
بيسان
جنين
قباطية
نهر الأردن
اليرموك
طبرية
٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥كم


الليطاني
صور
البحر المتوسط
المطلّة
بانياس
تبنين
الناقورة
البصّة
الحولة
جبال
الجليل
صفد
عكا
بحيرة
طبرية
حيفا
شفاعمرو
-٢٠٩م
طبرية
الكرمل
الناصرة
الحمّة
عتليت
سمخ
نهر المقطع
العفولة
اليرموك
بيسان
مجدُّو
قيسارية
عين جالوت
جنين
نهر الأردن
قباطية
عين جالوت
٦٥٨هـ = ١٢٦٠م



سهل عين جالوت



منظر آخر لسهل عين جالوت



تدريبات المقاتلين المماليك الحربيّة

٢- الثِّقة الكاملة بالنَّصر، ويتَّضح ذلك في تصريحات القيادة المملوكيَّة المسلمة، واستعدادها النَّفسي لملاقاة العدو، فقطز لم ينسَ رؤياه، وقول النَّبيِّ ﷺ: «أنت تملك الدِّيار المصريَّة وتكسر التتار».

٣- الانتقام من التَّتار الذين طغوا وبغوا في البلاد التي احتلوها، مع نكثهم بعهودهم التي كانوا يقطعونها على أنفسهم، فالانتصار عليهم في عين جالوت ثأر حاسم وجذري لكلٍّ المظلومين والمقهورين.

٤- العقيدة التي أججت في المقاتلين المسلمين روح التَّضحية والفداء، وجعلتهم يُقْدِمون على الموت، وهو أحبُّ إليهم من الحياة، لعظيم منزلة الشهادة والشَّهيد عند الله تعالى.

٥- الاستعداد الكامل والتَّحضير المتقن لهذه المعركة، وحشد كلِّ الطاقات والإمكانات لنجاحها، وخطَّة المعركة من حيث صلابة القوة الضاربة في القلب، ومفاجأة العدو الذي أنهك بفرسان الكمائن المتحفِّزة لخوض المعركة، وهي في كامل قواها الجسديَّة والرُّوحية.

٦- تراخي التَّتار وعدم اكتراثهم بتطبيق الأُسس والمبادئ الحربيَّة، وعدم أخذ الحيطة والحذر، لقد اتَّكأ قائدهم كتبغانوين على ماض عريق، ما عرف الهزيمة قط، فاغتر بسجله الحربي، وذخيرته العظيمة من الانتصارات المجلجلة التي أرعبت جيوش العالم، فكانت عين جالوت على نقيض ما كان يتوقَّع.

من عين جالوت إلى دمشق

كتب الملك المظفَّر قُطُز كتاباً إلى أهل دمشق يخبرهم فيه بالفتح، وكسر العدو المخذول، ويعدهم بوصوله إليهم، ونشر العدل فيهم وإنصافهم، فسر المسلمون بدمشق بذلك سروراً زائداً، وقتلوا كلَّ من عاون التَّتار أو مالأهم أو تجرّأ على مساجدهم، كلُّ ذلك الفرح والبهجة حينما ذهب بعضهم إلى هولاكو، وجاء من عنده بفرمان يتضمَّن الوصيَّة بهم، والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما، شرق دمشق قرب الباب الشَّرقي[1]، وفي هذا المعنى يقول بعض شعراء دمشق:

هَلَك الكفرُ في الشّآم جميعاً ... واستجدَّ الإسلامُ بعد دُحُوضِهْ
بالمليكِ المظفَّر الملكِ الأرْ ... وَعِ سيفِ الإسلامِ عند نُهُوضِهْ
مَلِكٌ جاءنا بعزمٍ وحَزْمٍ ... فاعتززنا بُسمرهِ وبيضِهْ
أوجبَ الله شكرَ ذاكَ علينا ... دائماً مثلَ واجباتِ فُروضِهْ

وفي نصرة الملك المظفَّر قُطُز يقول الشَّيخ شهاب الدِّين أبو شامة:

---

(١) النُّجوم الزَّاهرة ٧/ ٨٢.

غَلَبَ التَّتارُ على البلادِ فجاءهم   من مصرَ تركيٌّ يجودُ بنفسِهِ
بالشَّام أهلكهم وبَدَّد شملَهُمْ   ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسِهِ

ولمَّا قدم الملك المظفَّر إلى دمشق أحسن إلى النَّاس، وأعادهم إلى عوائدهم وقواعدهم كما كانت أيَّام الملك النَّاصر صلاح الدِّين الأيوبي.

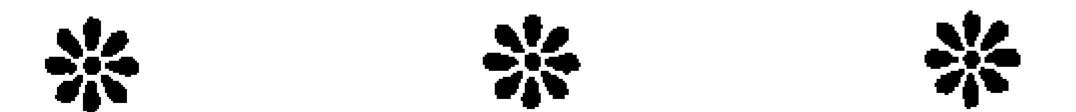
وبذلك يكون الملك المظفَّر قُطُز أوَّلَ من ملك بلاد الشَّام من المماليك، واستناب بها الأمير علم الدِّين سنجر الحلبي الكبير، وبعد أن نظَّم أُمور الشَّام خرج من دمشق عائداً إلى مصر، إلى أن وصل إلى القصير[1]، وبقي بينه وبين الصَّالحية مرحلة واحدة، ورحلت العساكر إلى جهة الصَّالحيَّة، وضرب الدِّهليز السُّلطاني بها، وبقي المظفَّر مع بعض خواصِّه وأُمرائه، وكان جماعة قد اتَّفقوا مع الأمير بيبرس البندقداري على قتل الملك المظفر قُطُز، منهم الأمير سيف الدِّين أنص، وعلم الدِّين صنغلي، وسيف الدِّين بَلَبَان الهاروني وغيرهم، كلُّ ذلك لأن قُطُز قد وعد بيبرس بحلب وأعمالها، فلمَّا انتصر على التَّتار، لم يعطه حلباً، وولاَّها لعلاء الدِّين علي ابن بدر الدِّين لؤلؤ صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الوحشة بين بيبرس وبين الملك المظفَّر قُطُز.

(١) القُصَير: شمال شرق القاهرة، لعلها اليوم الجعافرة، إحدى قرى مركز فاقوس بمديريَّة الشرقيَّة.

واتَّفق عند القصير بعد توجُّه العساكر إلى الصَّالحيَّة أن ثارت أَرنب، فساق الملك المظفر قُطُز عليها، وانطلق هؤلاء المتَّفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبقَ معه غيرهم، تقدَّم إليه بيبرس ومن معه وقتله.

دُفِن قُطُز موضع قتله في القصير، وكثر أسف النَّاس وحزنهم عليه، وكان قبره يقصد للزِّيارة، حيث التَّرحُّم عليه، والدُّعاء على من قتله، فلما بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه ونقله إلى غير ذلك المكان وإخفاء أثره، ولكن محبِّيه عرفوا موقعه، فنقلوه ودفن في القاهرة بالقرب من زاوية الشَّيخ تقي الدِّين قبل أن تُعمَّر، ثمَّ نقله الحاج قُطُز الظَّاهري إلى القرافة، ودُفِنَ قريباً من زاوية ابن عبُّود[1].

قُتِل الملك المظفَّر قُطُز عليه رحمة الله ورضوانه يوم السَّبت ١٦ ذي العقدة سنة ٦٥٨هـ، فعلى ذلك تكون مدَّة سلطنته سنة إلاَّ يوماً واحداً، فإنَّه تسلطن في يوم السَّبت ١٧ ذي القعدة في سنة ٦٥٧هـ.

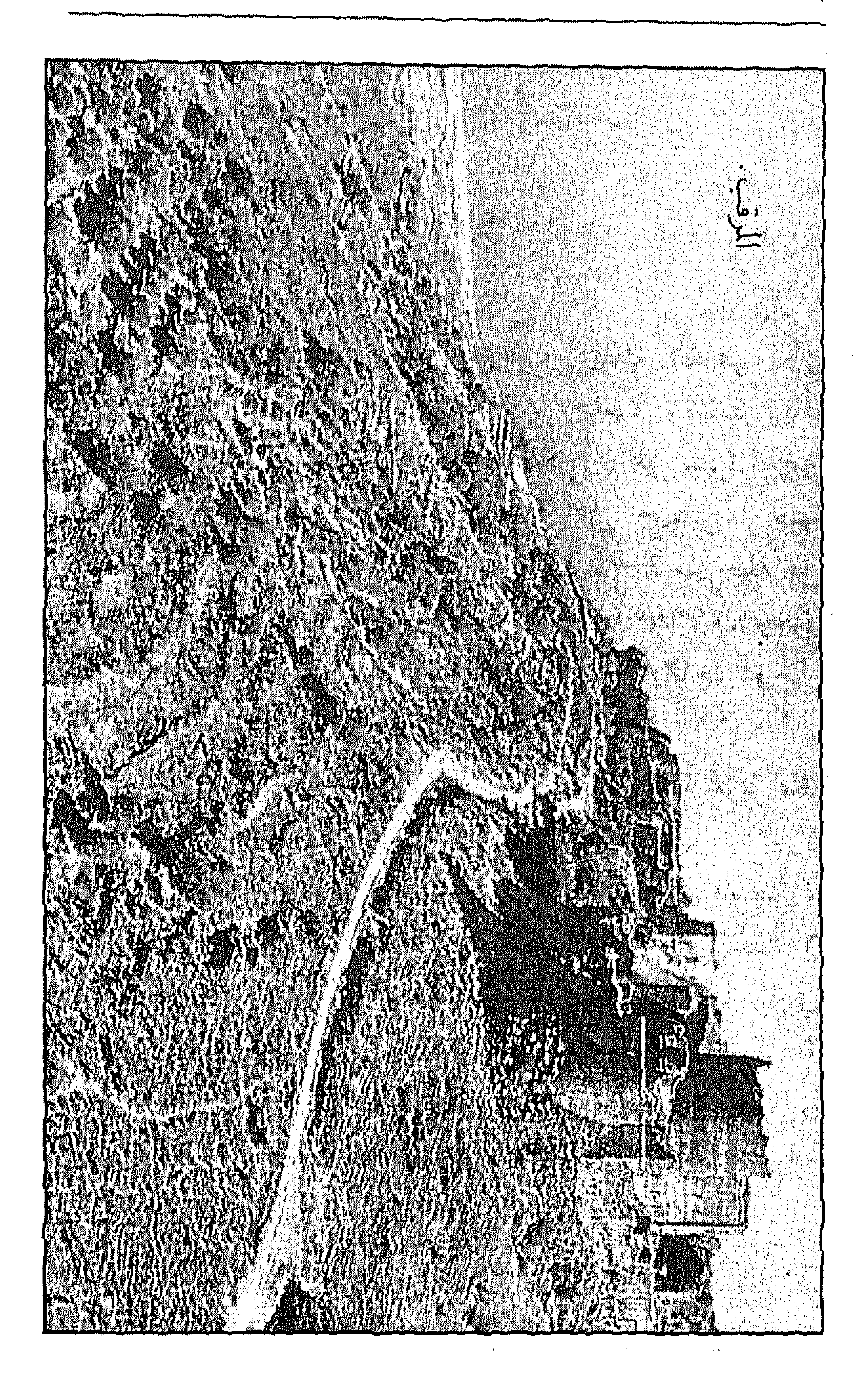


(١) النُّجوم الزَّاهرة ٧/ ٨٧ (الحاشيَّة).

تحرير عكا
ونهاية الصَّليبيِّين

تولى قلاوون بعد موت بيبرس، الملك القاهر، أبي الفتوحات، بعد جهاد دام سبعة عشر عاماً، وكانت وفاته أواخر المحرَّم ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، وسار قلاوون على سيرة بيبرس في إتمام تحرير بلاد الشَّام، والقتال على جبهتين، جبهة الصليبيِّين، وجبهة التَّتار، فحرَّر قلعة المرقب - قرب جبلة على ساحل المتوسِّط - سنة ٦٨٤هـ/ ٢٥ أيار (مايو) ١٢٨٠م، وحرَّر اللاذقيَّة وميناءها في ٢٠ نيسان (أبريل) ١٢٨٧م، وحرَّر طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ٢٠ أبريل (نيسان) ١٢٨٩م.

ولم يبقَ سوى عكا وبعض الجيوب، وجاءت بداية تحرير عكا حينما قتل الصليبيُّون فيها التُّجار المسلمين، سمع قلاوون بذلك، فتأهَّب لتحريرها، فسار من القاهرة متَّجهاً إلى فلسطين، وبعد مرور أيَّام أصابته وعكة مات على أثرها في يوم السَّبت ٦ ذي العقدة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، فخلفه ابنه الأشرف خليل الذي بدأ من حيث انتهى أبوه، ووصل مشارف عكا يوم الخميس ٣ ربيع الآخر ٦٩٠هـ/ ١٥ نيسان (أبريل) ١٢٩١م، مجهِّزاً المجانيق التي قدمت من دمشق، ليحقِّق نصراً حاسماً على المدينة الحصينة،



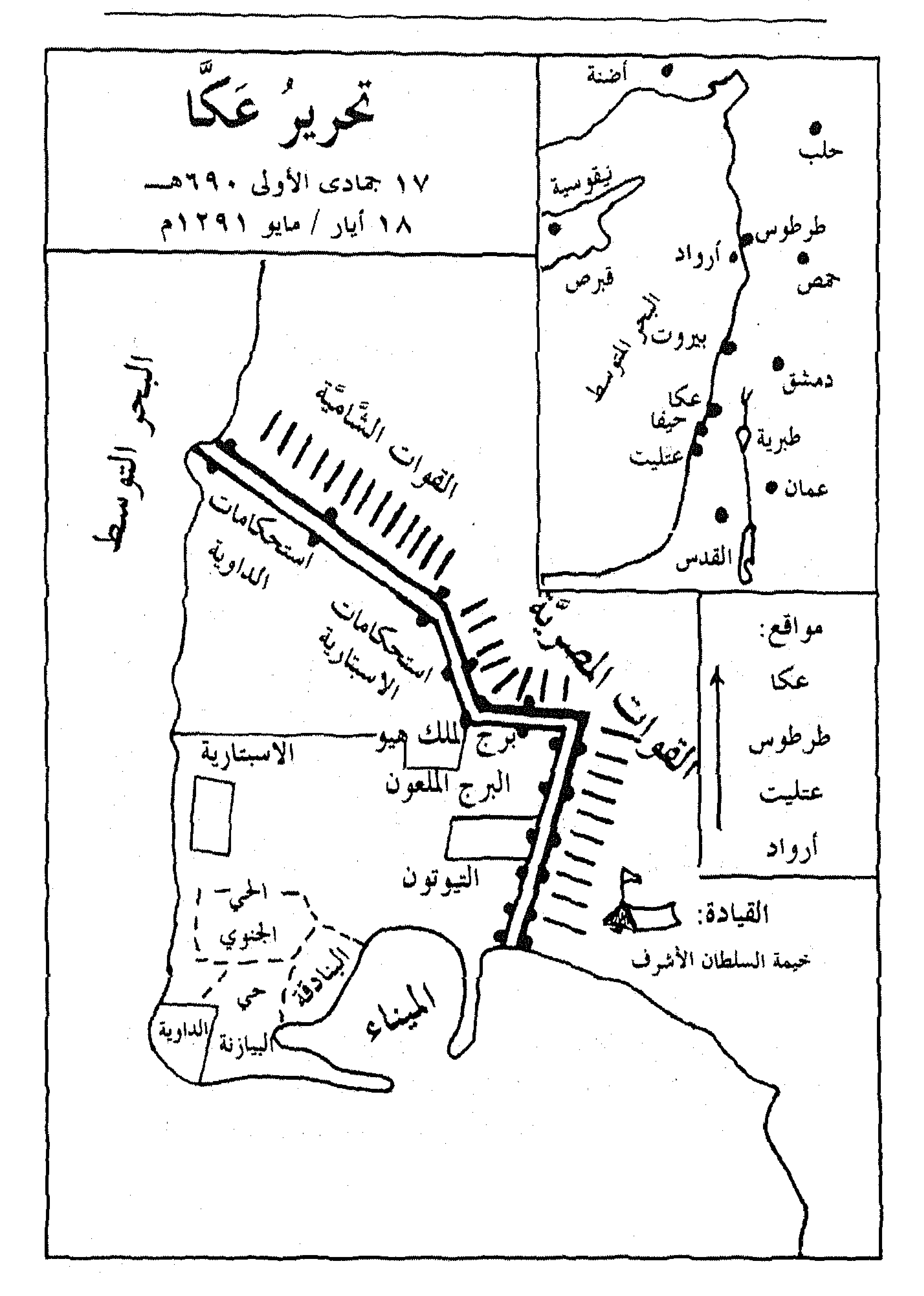
حيث إملريك القائد العام للقوات الصليبية المدافعة عن عكا، وهو يعلم أنَّ المعركة معركة حياة أو موت، فهم بقايا الكيان الصَّليبي المتداعي[1].

دام الحصار ٤٤ يوماً، ويوم الجمعة ١٧ جمادى الأوَّل أحدث مهندسو المسلمين ثقوباً في سور عكا، وانهار برج هيو، وأهم برج في السُّور (البرج الملعون)، ومع أصوات الطُّبول والموسيقا العسكرية العالية، دخل المسلمون بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون عكا في ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/١٨أيار (مايو) ١٢٩١م[2].

وكلَّف تحرير عكا جهوداً مضنية، بُذِلَت على مدى أجيال على مدى قرنَيْن من الزَّمان، فهو مفخرة كبيرة للسُّلطان المملوكي الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، وبقيت جيوب صغيرة لابُدَّ من تصفيتها، فحرِّرت صور وصيدا في ١٤ تموز (يوليو) ١٢٩١م، وبيروت، وطرطوس، وعتليت، ولم يبق وجود للصَّليبيِّين على السَّاحل الشَّامي إلاَّ جزيرة أرواد، التي حرِّرت سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، فكتُبَ السَّطر الأخير في قصَّة العدوان الغربي.

(١) الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، د. حامد غنيم أبو سعيد ٣/ ٢٣١-٢٣٤.

(٢) حاول هنري الثَّاني الذي وصل من قبرص إلى عكا مع تعزيزات صليبية، التفاهم سلميّاً مع السُّلطان خليل بن قلاوون، ولكن السُّلطان واجه الرُّسل قائلاً: «ألم تحضروا معكم مفاتيح المدينة؟».



تحريرُ عَكّا
١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ
١٨ أيار / مايو ١٢٩١م
البحر المتوسط
القوات الشامية
استحكامات الداوية
استحكامات الاسبتارية
القوات المصرية
برج الملك هيو
الاسبتارية
البرج الملعون
التيوتون
الحي الجنوي
البنادقة
حي البيازنة
الداوية
الميناء
القيادة:
خيمة السلطان الأشرف
أضنة
حلب
نيقوسية
قبرص
طرطوس
أرواد
حمص
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
عكا
حيفا
عتليت
طبرية
عمان
القدس
مواقع:
عكا
طرطوس
عتليت
أرواد

الإمارات الصّليبية: قيامها وسقوطها

	الإمارة	قيامها	سقوطها	مُحَرِّرها
١	الرُّها	٤٩١هـ/ ١٠٩٨م	٥٣٩هـ/ ١١٤٤م	زنكي
٢	أنطاكية	٤٩١هـ/ ١٠٩٨م	٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م	بيبرس
٣	مملكة بيت المقدس	٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م	٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م	صلاح الدِّين الخوارزميّة
٤	طرابلس	٥٠٢هـ/ ١١٠٩م	٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م	قلاوون

❊ ❊ ❊

خاتمة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[يونس: ١٠/٨١].

وبعد.. فما أشبه اليوم بالبارحة، نهاية محقَّقة لابُدَّ أن تكون، عاجلاً أمْ آجلاً، فالجسم الغريب في كيان سليم منسجم متناسق لابُدَّ أن يُلْفَظ.

ولُفِظَ الصَّليبيُّون من بلادنا بعد وحدة الصَّف، وائتلاف الكلمة، لقد جاء الإسلام بكلمة التَّوحيد، وجاء بتوحيد الكلمة، فكان تحرير الرُّها، وكانت حطين وتحرير بيت المقدس، وتحرير أنطاكية وطرابلس وعكا.

وهل يمكن لأُمَّة تحقيق أهدافها السَّاميَّة بتمزُّق الصَّف، واختلاف الكلمة؟ التَّاريخ ينطق بشواهده وأحداثه، وهو شاهد صادق أمين.

لقد أذكى نور الدِّين وصلاح الدِّين وقُطُز وبيبرس وقلاوون العقيدة في النُّفوس، فكان التَّحرير، مع سلامة البنية الدَّاخليَّة

عدلاً، وعلماً، وأمناً، ورعاية اجتماعيَّة وصحيَّة، فلا تخلو بلدة من حلب شمالاً إلى القاهرة جنوباً مروراً بحماة وحمص ودمشق والقدس والقاهرة من المدارس والجامعات والبيمارستانات التي يعود بناؤها إلى زمن الدَّولة النُّوريَّة، والدَّولة الصَّلاحيَّة، ودولة المماليك، حتَّى شملت رعايتهم الحيوان، فمرجة الحشيش في دمشق على ضفّة نهر بردى الجنوبيَّة، أوقفها نور الدِّين الشهيد على الدَّواب التي تعبت، وخصوصاً الخيل التي شاركت في معارك الجهاد وأسنَّت، أو أُصيبت، فتأكل من نبات هذه الأرض، التي تمتد كيلومترات، وتشرب من مياه بردى، مع رعاية بيطريَّة، حتى تموت بشكل طبيعي، اعترافاً بقيمتها حين حملت المجاهدين على ظهورها في حربهم للدُّخلاء الغرباء، الذين غلَّفوا أطماعهم الدُّنيوية المادية بقيم دينيَّة، هي منهم براء[1].

ومما يذكر أن دمشق لم تقع بيد الصليبيِّين، ولكنهم وصلوا ضواحيها.

الفقيه يوسف الفندلاوي كان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً، خرج من دمشق للجهاد ضد الصليبيين، فرآه الأمير معين الدِّين أنر فقال له: يا شيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوَّة

---

(١) الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ٣٣٥.

ومصادر ومراجع الأجزاء الخمسة الأخيرة في آخر جزء منها: تشالديران.

على القتال، فردَّ الشيخ المسن قائلاً: قد بعت واشترى، فلا نقيله ولا نستقيله، ويعني بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ٩/١١١]، ومضى الشَّيخ إلى الجهاد، وفي نهاية المعركة كان واحداً من الشُّهداء.

❊ ❊ ❊

دار الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٩٦٢
هاتف: ٢٢١١١٦٦ - فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com

The Greatest Battles
In the History of Islam

AYN JALUT

Dr. Shawqi Abū Khalil

